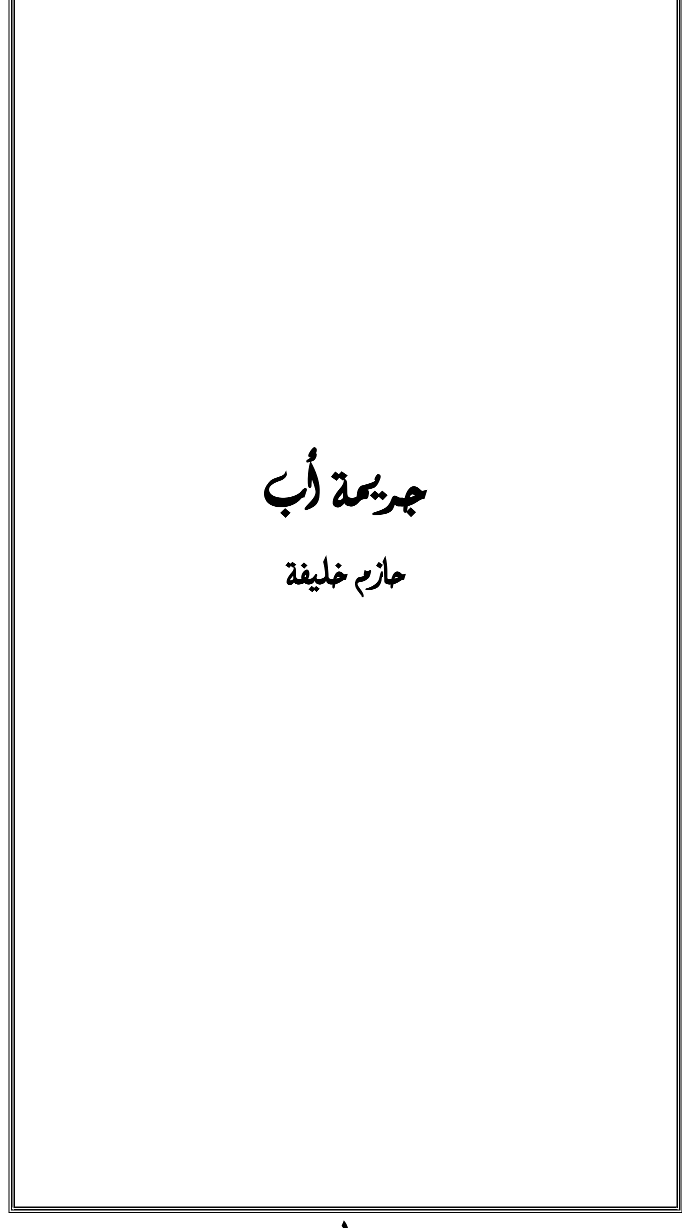


جريمة أب

حازم خليفة

اسم الكتاب : جريمة أب (رواية)
اسم الكاتب : حازم خليفة
رقم الإيداع : ١٤٤٢٤
الترقيم الدولي : ٩٧٨٩٧٧٦٥٢٧١٢٦
الطبعة الأولى : ٢٠١٥
مراجعة لغوية ، وإخراج : هيام فهيم
صادر عن : مؤسسة زَحمَة كُـتَّاب للثقافة والنشر
١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة



www.facebook.com/za7ma

www.facebook.com/za7makotab

za7ma-kotab@hotmail.com



إهداء



إلى من حملتني بالمشقة والألم، وعلمتني كيف أنطق الكلم، وكيف أمسك القلم، وأن أحب المظلوم وأكره من له ظلم **..** أمي الحبيبة، أهدي إليكِ هذا العمل الأدبي**.**

✍ .. ابنك المحب / حازم خليفة

في صبيحة أحد أيام شهر رمضان الكريم الذي وافق شهر يوليو من العام نفسه، استيقظت عزبة الزعفراني على خبرٍ رهيب، أفزع أهالي القرية الصغيرة، وألقى عليهم ظلاله السوداء من الألم الممزوج بالقلق، ولم تفلح نسائم الصباح العطرة ونفحات الشهر الفضيل في تهدئة مشاعرهم التي التهبت بتلك المصيبة، مصيبة وفاة كبير القرية الدكتور أدهم عبد الحميد، واكتشاف جثته متعفنة في الشقة التي يتخذها استراحة بعمارة الزعفراني الكائنة بالإسكندرية - حي سيدي بشر، تلك العمارة المكونة من عشر شقق تؤجر جميعها مفروشة للطلبة طوال العام الدراسي، وتؤجر كمصيف باقي شهور السنة، كبيرهم الذي طال انتظارهم وترقبهم لوصوله منذ سفره في رحلته الأخيرة إلى الصين، حتى وصلهم الخبر المشئوم عندما اتصل محمود الصباغ مدير مصنع الزعفراني لمواد البناء بالعامرية، ليبلغهم بما اكتشفه حين جاءه اتصال من الصين على هاتف المصنع للإبلاغ عن موعد وصول المعدات التي تعاقد عليها أدهم لتطوير المصنع، ليفاجأ بأن المرحوم وصل من الصين منذ فترة، فأسرع يسابق الخطى ويطوي الشوارع، ويسابقه العاملون بالمصنع كلٌ منهم على قدر وسيلته إلى الشقة التي اعتاد المرحوم الإقامة فيها كلما احتاج لمتابعة العمل بالمصنع ليفاجئوا بالمنظر البشع،

وما إن وصــل الخبــر للقريــة حتــى ارتفعت أصــوات النحيـب والبكــاء، واختفت تحية الصبــاح لتحـل محلها عبارات التعزية والمواســاة، وكان يـومًا عقيــم الرياح فبدت الأشجار راسخة متحجرة، تتدلى أغصانها كجسد معلق على منصة الإعدام، وتغير صوت الغدير المعلوم وكأنه نحيبٌ مكتوم، وحبست البهــائم أنفاســها التقليـدية وبدا صوتها كأنيـن السقيم الذي لا ينتظر الشفاء، وكــان رد فعل أهل القرية طبيعيًا بعد وفـاة عائلـهم وكبيــرهم والمسئول الأوحـد عن إدارة جميــع مصــالـح القريــة، فاستبـد بهم القلق على مصالحهم، وزاغــت أبصارهم، وتزلزلت الأرض من تحتهم وهم يرون مصيـرهم على المحكِّ، وزاد من هول الفاجعة أنه توفي بهذه الصورة البشعة، الغريب في الأمر أن مالك العزبة الحقيقي كان شابًا يدعى شاهين، ذلك الفتـى غريب الأطوار الـذي بدا كحالة إنسانية نادرة.

فهذا الشاهين هو الابن الوحيد والوريث المنفرد لأملاك والده المليونيـــر حامد الزعفراني – صاحــب العزبـة ومُنشؤها، ذلك الرجل العصامي الذي ولد لأسرة فقيرة معدمـة، فقد كان والده خليل الزعفراني ابن كفر هورين محافظة المنوفية، فلاحًا فقيرًا لا يملك من حطــام الدنيا شيئًا، ويكســب قوت يومــه من العمـل لدى أصحـــاب الأراضي في أعمال الزراعة، كنفر باليومية يعمل يومًا ويجــوع أيامًا، وإذا صـادف العمل فإنه يقضي معظـــم

النهار تحت الشمس المحرقة واقفًا أو منحنيًا للغـرس أو الحرث، أو غيرهما من متطلبات الزراعـة، متلهفًا غروب الشمس ليلملم قروشه الزهيدة التي تسد بعضًا من جـوع زوجتـه وأولاده الخمسـة، أولاده الذيـن استطاعت أجسامهم الصغيرة مكـابدة أيام الفاقة، وليالي الحاجة، تاركين في طريقهم ثلاثة أطفال آخرين رحلوا جميعًا عن الحياة وسقطت أجسادهم الضعيفة أمام وحش الفقر ومعاونيه الجوع والمرض قبل أن يتم أحدهم عامه الثاني.

وكان حامد أقرب الأولاد شبهًا بأبيه، فورث عنه جسده الضخم وعضلاته المفتولة، لكنه كان طموحًا ومحبًا للمغامرة فرحل عن القرية مهاجرًا إلى العاصمة للبحث عن فرصةٍ أفضـل، وقد كانـت رحلتـه شـاقه مليئـة بالمتاعب والأهوال في بدايتها، إذ بدأ حياته عاملًا للبناء معتمدًا على بنيانه الجسماني القوي، ورغم أنه لم ينل حظًا من التعليم إلا أنه كان متوقد الذكاء حاضر الذهن وسريع التصرف والحركة، لا يهدأ ولا يتكاسـل عـن العمل في أي وقت من ليل أو نهار، ولا يضيـع أيـة فرصة لكسـب المزيـد من المال مهما كانـت المهمـة صعبة أو كان المقابل زهيدًا.

وقد عُـرف بقامتـه الطويلـة، ورأسـه الضخـم، وعينيه الكبيرتين، وأكتافه البارزة بوضوح تحت جلبابه البلـدي

الذي يُفصح عن أصله الريفي ويتفق مع لهجته القروية، كذلك بدا الارتخاء العصبي في جفنه الأيمن لافتًا للنظر حين يبدو ناعسًا لا يهتز أو يتحرك مع حركة عينيه، ولا يتفاعل مع انفعالاته أو حماسه في الحوار الذي يغلبه أحيانًا بصوته الخشن الجهوري، كما كان يجيد معسول الكلام ويعرف متى وكيف يختار موضوعات الحديث التي كانت محببة لسامعيه في غالب الأحيان، وخاصة إذا ما استعان بما يحفظه من الأقوال المأثورة والمتداولة في ثقافة الريف، والتي يكسوها طابع التدين والزهد، مما يمنح صاحبها وقارًا في القلوب حين يبدو خاشع القلب، صافي النفس، حتى لو لم تكن أعماقه تستحق نفس القدر من الثقة.

واستمر الحال على هذا النحو لسنوات وحامد ينتقل من عمل إلى آخر حتى التحق بالعمل لدى أحد كبار المقاولين وهو الحاج سعيد عبد الباقي ذلك الرجل واسع الثراء ذائع الصيت في سوق العقارات، واستطاع حامد خلال فترة بسيطة أن يتقرب إلى صاحب العمل ويكون أثيرًا لديه، فقد اجتهد فوق نشاطه ومثابرته على أداء أي عمل يوكل إليه في صناعة المواقف التي تؤدي إلى اكتساب ثقته ورضاه، وبالفعل لم تمضِ بضعة شهور حتى أصبح حامد رئيسًا للعمال بل وصديقًا مقربًا للحاج سعيد وكاتم أسراره ومحل ثقته.

ومرت السنون وحامد يواصل مسيرته صابرًا على أداء دور الخادم الأمين المجتهد والتابع المخلص القانع بما يلقيه إليه سيده من جنيهات، دون أن يطلب أي زيــادة مهما زاد عليه العمــل، ويزيــد على ذلــك بأن يرفــض زيادة راتبه بحجة الحفاظ على السيــولة وعلى مصــالح الحاج قائــلا:

- مستورة يا حاج والله .. ومتنعمين في خيرك، ربنا يزيدك من نعيمه.

وكان الحاج يضع بين يديه الكثيـر من الأموال فيحفظها ويحرص بشدة في إنفاقها، حتى جاء يوم مرض الحاج سعيـد مرضًا شديدًا، ونصحــه الأطبـاء بسرعة إجـراء عملية جراحيه في القلب، واستدعى حامد إلى منزله ..

الحاج سعيد:

- أهلا يا حامد، ازيك.

حامد:

- ألف لا بأس عليك يا حاج، والله والله الشــركة والمواقع كلها كأنها فاضيـة وضلمـة من غيــرك، والله أنا لســاني ما بيبطــل دعــا .. ربنا يشفيــك ويقومك لينا بالسلامة.
- فيك الخير .. أنت ابن حلال يا حامد، وراجل بجد.

- كلنا خدامينك يا حاج وفى حمايتك.
- اسمعني ..
- اؤمرني ..
- فيلا المهندسين، بتاعة الدكتور برهان عارفها؟
- مالها يا حاج ؟
- معاد تسليمها بكره.
- جاهزة يا حاج وكله تمام بأمر الله.
- والدكتور مسافر بعد بكره انجلترا، أنا عاوزك تحضر معاه التسليم وتروح معاه البنك، ها يسحب بقية المبلغ بتاع الفيلا .. المليون جنيه، تاخدهم وتطلع على المعلم سالم المرشدى، عارفه؟
- ايوه .. بتاع باب الشعرية.
- تمام .. تدفعهم له ثمن الأسمنت اللي ها يتشون بكره في مخزن الدرّاسة .. فهمت؟

يعلق حامد بإيماءة من رأسه ..

- وتروح تستلم الأسمنت وتشوِّنه بمعرفتك، أنا مش عايز قلق ولا فرفطة في المواعيد والشغل.
- ما تخافش يا حاج .. كلنا خدامينك، وشاربين منك، دي الناس كلها بتضرب المثل بمواعيدك المضبوطة .. ما تخافش أبدًا، كل اللي عايزينه إنك تخلي بالك أنت من الحاج سعيد ... أحسن ده غالي عندنا قوي.

يضحك سعيد، ثم يعتدل في فراشه كمن يتأهب للحركة فيبادره حامد بحركة تلقائية مادًّا يده ليخلع عن الحـاج الروب دي شامبـر الذي كـان يرتديـه فوق بيجـامته الزرقاء، فعلق الحاج بابتسامة رضا تنم عن امتنـانه وسعادته بعامله الذكي الذي طالما أدهشه بسرعة بديهته ولباقته في التصرف، ثم خلع نظارته المعدنية واعتدل مستعدًا للنوم.

- تؤمرني بحاجة تاني يا حاج؟
- شكرًا يا حامد .. أشوفك على خير ومش عايزك تشغل بالك بيا .. ولا تيجي المستشفى .. متابعتك للشغل هي اللي ها تريحني أكثر.
- بس يعني ..
- وبعديـــن !!!
- أمرك يا حاج .. سلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وفي اليوم التالي نفّذ حامد تعليمات صاحب العمل بدقة شديدة حتى خرج من باب البنك، وهناك تغيرت وجهته فبدلًا من التوجـه إلى باب الشعريـة ذهب إلى محطـة القطار مستقلًا القطار المتجه إلى السّلوم على الحـدود الغربية، وهناك عبَر الحدود إلى ليبيا، ومنها إلى إيطاليا بحـــرًا عبر مركـــب صغيـــر مع أحـــد الجماعـات المتخصصة في تهريب المهاجرين إلى أوروبا.

أما الحاج سعيد فقد توفى أثناء العملية لتكتمل لحامد الظروف، ويغتنم السر ويتمم استيلائه على المبلغ الذي لا يعرف بأمره من مخلوقات الله غيره ..

وبالفعل استقر حامد في إيطاليا بجواز سفره الذى كان قد أعده منذ فترة منتظرًا اللحظة المناسبة التي يغفل عنه فيها صاحب المال، وبدأ حامد رحلته الجديدة في إيطاليا حيث بدأها بالعمل اليدوي في البناء الذي يجيده، وبالتدريج تعرف على عناصر ذلك السوق، وبدأ في تجارة مواد البناء وبدأ يستعمل السيولة التي حملها معه من مصر تدريجيًا وبحذر وذكاء شديدين، وبعد فترة وجيزة أصبح أحد كبار تجار مواد البناء، وكان إلى جانب تلك التجارة يستغل ما تحت يده من ثروة في شراء التحف واللوحات الأثرية النادرة، وإعادة بيعها وكان يتفنن في هذا الأمر بدرجة مذهلة فتضاعفت ثروته في مدة قصيرة، وازدادت شهرته كأحد كبار التجار في نابولي.

وفكر حامد في الزواج، وكان قد شارف على الخمسين من عمره دون أن يفكر في الارتباط بأي فتاة طوال تلك الفترة التي كان شاغله الوحيد فيها، جمع المال وتحقيق الثروة.

والتقى حامد بالفتاة لورا، التي أحبته وتزوجته رغم أن فارق السن بينهما يزيد على عشرين عامًا.

فقد كانت لورا فتاة فقيرة يعمل والدها لدى حامد كعامل بسيط قبل وفاته التي كانت سببًا في لقائها بحامد، حيث لفت نظره وقوفها وحيدة أثناء مراسم دفن والدها، مما أثار فضوله وعرف منها أن والدها يعيش معها وحيدًا في هذه المدينة، بعد أن غادر بلدته الأصلية تورينو في الشمال، هاربًا بقصة حبه مع أمها التي تزوجها ورزقهما الله بابنتهما الوحيدة لورا التي عاشت وحيدة، لا تجد حولها سوى أمها التي لا تفارقها في ساعة من ليل أو نهار إلا بالكاد ساعات الدراسة، فما إن تعود للمنزل حتى تتلقفها أمها حانية بلهفة واعتناء، وكأنها تعيد على مسامعها قصتهما المتكررة أن تلك هي الحياة نحياها منفردين، تكتفي إحدانا بالأخرى، معتادين على غياب الأب الذي كانت ظروف عمله تضطره إلى الغياب عن المنزل لأيام، وربما لأسابيع وراء عمله المتنقل دائمًا، وظلت حياتهما هكذا حتى توفيت والدتها وهى في الخامسة عشرة من عمرها، وتركتها وحيدة تمامًا.

وحيدةً تواجه الحياة بشخصية بريئة كالطفل الذي لا يعرف عن مفردات الحياة وصراعاتها ما يؤمنه عواقبها، وكانت بسيطة في كل شيء .. مظهرها حتى جمالها كان من النوع العادي الذي لا يلفت الأنظار وكانت هادئة الطباع، من النوع الذي لا يشعرك بوجوده، وقد ارتبطت بحامد وفرحت بالزواج منه

طمعًا في الحياة الناعمة التي تتوقعها من ثرائه الفاحش، متأملة تعويض الدنيا لها عما عانته من خشونة الأيام وبرودة الليالي.

وبالفعل تم زواجهما بسرعة، ودون توسع في مظاهر الاحتفال، ومما ساعد على ذلك أن حامد لم يكن من ذلك النوع من رجال المال والأعمال الذين يحتفظون في أتون معاركهم المالية بصداقات حقيقية لا تفسدها شهوة النجاح وسطوة المال، فهو على العكس من ذلك، قد اعتاد على حصر علاقاته في حدود تعاملات سطحية عابرة لا تتجاوز ارتباط المصالح، دون أي ارتباط شخصي، وكانت لورا بدورها لا تجد حولها ثمة أصدقاء نظرًا لظروفها التي جعلتها وحيدة دون صديق أو قريب، فاقتصر الاحتفال على سهرة خاصة في أحد النوادي الفاخرة التي يرتادها كبار الأثرياء، وبدت العروس في قمة السعادة في فستانها الأبيض الرائع المصمم على شكل زهرة لوتس، عاري الكتفين، والذي اشتراه العريس من أحد أشهر بيوت الأزياء في إيطاليا حيث تشتهر صاحبته بلمساتها اليدوية الفنية التي تتميز بها أزياؤها، ولقد منحت ذلك الثوب من فنونها الكثير، فرصعته بأحجار صغيرة ملونة بلون البنفسج الفاتح كأزهار لوتس صغيرة وضعت بيد فنان مبدع، وبتوزيع رائع بحيث لا تفسرها العين إلا إذا اقتربت ودققت لتبدو تجاه ناظريها عن بعد وكأنها ظلال ضوئية تزيد الثوب

جمالًا وبهـاءً زاده قـدها الممشـوق انسجـامًا وروعةً، متوجًا بشعرها المعقوص على هيئة قلبين متقاطعيـن، وبدا وجهها المستطيل وكأنـه تحول متأثرًا بابتسـامتها العريضـة إلى وجه آخر أكثر استـدارة، وبدت عيناها الزرقاوتـان الصغيرتان تقـاومان الوجنتين البارزتين لئلا تمنعها الابتسـامة من متـابعـة أدق التفاصيـل في أروع ليلة مرت على عمرها القصير.

ورقصت منتشية في ثوبها الواسع ذي الذيل الطويل بين ذراعي شريكـها الضخم الذي بدا متنافرًا مع المشهـد وكأنه حِنطٌ من الآثار المصرية يحاصر بذراعيه طفلة مُدلّهةٌ في عشق التاريخ الفرعوني.

وبعد زواجهما اكتشفت لورا أن حلمها بالحيـاة الناعمة والثـراء لم يكن كـافيًا لتشعـر بالأمان الذي افتقدتـه، واكتشفـت أن ضـالتها كانـت هي الشعـور بالأمـان لا سـواه، وأنها أخطـأت الطريـق بسعيها وراء المـال فلا تـلازم بيـن الثـراء وبين الأمـان وغالبًا ما افترقا وتنافرا كأقطاب المغناطيـس المتشـابهة، وازداد لديها الشعور بفقدان الأمان وأن حياتها بلا جدران حقيقية، ذلك الإحساس الذي عذبها كثيرًا في رحلة حياتها، وأن الرجل ذو النفس الطماعة والقلب المتحجـر مهما بلغت ثروته فإنه لا يملـك الشعـور بالأمان حتى يمنحـه لمن أراد، بينما يملكه رجل طيب القلب حسن العشرة.

وقد كان حامد تجسيدًا حيًا لذلك التناقـض فوق تناقـض آخر أكثر غرابة، فقد كان حلو اللســان وصاحب ذوق رفيـع في معاملة البشر، لكن سرعـان ما يتبــدد هذا الانطباع، ويسقط ذلك الغلاف المزيــف بالمعاشــرة المباشرة، فاكتشفت لورا أن سلـوكه ذاك كان خــارج المنزل فقط، فإذا دخل منزله بدا رجلًا غريب الأطـوار سريع الغضب، لا يتردد في سبها لأتفه الأسباب وأحيانًا كان يضربها بشدة لمجرد ملحوظة بسيطة أو لتأخـرها في تلبيـة طلـب له، أو عدم الاستجـابة الفوريـة لأحد نداءاته عليها لأي غرض.

ولأن لورا كانــت من النــوع الهــادئ الذي لا يبـدي اعتراضًا ربما لاعتقادها الراسخ بأنه لا يوجد من يهتم بآلامها أو يستمع لشكـواها، كانت تخفـي معــاناتها في كثيــر من الأحيــان، ويبدو عليها عدم التأثــر بتلك التصرفات، وتخفي امتعــاضها وهي تبتلـع الإهانة تلو الأخرى، ولم تكن تعبر عن ذلك الغضــب إلا عنــدما تخلـو بنفسـها، فتبكي لســاعـات متواصلة بكاءً مكتومًا ودون أن تبوح بزفرة ألم أو آهة عذاب.

ومع مرور الوقت اعتاد حامد على ذلك لكنه كان في بعض الأحيـان ما يرق قلبه لها، فيبـدأ في استرضــائها وربما لملاطفتها، وأحيانًا لحــاجتـه لها كأنثــى ترضي شهوته.

وبعد مرور فترة - حوالي عام على زواجهما، حملت لورا، وقد كان لخبر الحمل تأثيرًا كبيرًا على زوجها حامد .. بل وصل إلى حد الصدمة الشديدة .. فصرخ من شدة الفرح .. إذ لم يكن لديه أمل في استطاعته الإنجاب، وقد بلغ العقد السادس من عمره، وخطا فيه عدة خطوات، خاصة لمـن عـاش مثل حيـاته التي أبلى معظمها في مكـابدة الشقـاء، ومرت سنوات عمره عبْر أيام وليالي بالغة القسوة، لا يربطـه بالحيـاة فيها سوى غريزة البقاء، حتى حفرت الأيام بأظـافرها على جسده ذكريـات لا تنسـى، أيام وسنوات عاشها وتدًا تطحنـه النوازل وتدفعـه إلى مجـرى الهـلاك، لتخفي معـالمه وتزرعه في أرض الضحايا، ولم تفارقه تلك الذكريات إلا بعد أن تركت عليه آثـار ضرباتها الشرسة، وأدمت جسده في كل موضع، كل ذلك قبل أن ينتزع صندوق أحلامه بأظافره في آخر الزمان، ويتحول إلى صيـاد للفرص، وبذلك فقد آمن طوال حيـاته بغـدر الدنيـا، فلم يأمنها بتاتًا، ولم ينتظر منها أن تمنحه أية فرصة، وإنما عليه أن يبحـث عن فرصتـه بنفسـه ويقتنصها بيـده، وها هي الرحمة الإلهية تمنحه ذلك الامتداد الجميل من ثنايا جسده، ذلك الجسد الذي أنهكته الصراعات وتحمل ما لا يطيـق لأجل البقاء على الطريق، فلابد أن يختار له طريق الصياد حتى لا يتركه أبدًا عُرضة لذلك الوجه المخيف من غدر الأيام، ولأنه تعلم من حياته أن لكل

شخصية عنوانًا يعرفه بها المجتمع أو بروازًا تضع فيه تصرفاتها، تدور في فلكه وتتفاعل معه فهذا رجل طيب وذاك رجل متدين والآخر قوي في صراعــاتــه وهكذا، فلا بد من أن يختار لولده اسمًا يكون عنوانًا لشخصيته.

ولقد تغيرت معاملته لزوجته تمامًا مُذاك، وطوال فتــرة الحمل، فتحول إلى رجل حنون عطوف، لا يفــوتــه الاهتمام بزوجته، ولا يتأخر في تلبيــة أي مطلــب لها، وقد كانت لورا بطبيعتها قليلة المطالب غير مثيرة للقلق أو المشاكل، واستمرت هذه المعاملة حتى وضعت لورا مولودها .. شاهين.

ومنذ لحظة الولادة استولى هــذا المولود على قلب أبيه حامد بل وعلى عقلــه، فأصبح المولــود هو محور حياة والده، لا ينام إلا بجــواره، وتبدلت معاملته لزوجته إلى شكل جديد كان أقسى عليها من كل ما عانته معــه من قبل، فحامد لا يعاملها إلا كخــادمة لابنه وأن تلك مهمتها الوحيدة، وكان كثيرًا ما يصارحها بذلك قائلًا:

- انتى هنا لخدمة ابني وبس.
- أنا أمه !

يقلب حامد شفتيه بامتعاض، دون أن ينطق.

ومما زاد الأمر سوءًا أنها لم تستطع إرضاع مولودها، فلم تفلح محاولاتها في استدرار جسدها الضعيف لتمنـح

صغيرها غذاءَه الضروري، وقد كان لهذا الأمــر بالــغ الأثر في شعورها نحوه وكأنه اعترافٌ منها بأنها مجرد خادمة للمولود وليست أمًا طبيعية له، وأعطى الفرصة لحامد ليبالغ في قســوته عليها بكــلامه الجــارح عــن الخادمة الأجيرة التي لا تملك شيئًا و تحيا على ما يجود به عليها صاحب الدار، دون أن يكون لها الحق في أي شيء.

بدأ المولود خطواته الأولى في الحياة، وبدأ يتعلم النطق تلك الخطوة التي أسعدت أبوه كثيرًا لدرجــة أفقدتــه صوابه أحيانًا وأطــارت لُبه، فكان يفرح بشــدة لأي حرف يخــرج من فم هذا الصغيــر، وكان يعلمه الكلام ويضحك بشدة إذا سبَّ هذا الصغير والدته بل إنه كان يشجعه على ذلك، والأغرب من ذلك أنه لم يكن ليضيق إن فعلها الصغيــر معه وسبه بأقذع الألفاظ، فقد كــانت تلك أكثر الأشياء إضحاكًا له، فاعتاد الطفل على ذلك وكان يشتم والدته أو والده ويضحك بشدة، وكانــت الأم لا تملك الاعتراض لأنها لو فعلت لن تنال إلا التجريح والإهــانة، وكانت إذا نفــد صبرها في إحدى المــرات ونهرته على فعلته أو شكته إلى والده، كان الأب يعاقبها هي بل ويطلب من ابنه أن يصفعــها على وجهها جزاء ما نهــرته أو ضربتــه، وكان الأب يعلــق على ذلــك بضحكة خشنة قاسية من قلب غليظ، فاقد الشعور.

استمرت حياتهم على هذا المنوال ولورا تتجرع العذاب ألوانا والمهانة أشكالًا، وتفاقمت مخاوفها من المستقبل مع شعورها الدائم بأنها مرتبطة بهذا المنزل ارتباط المحتاج الذي لا يجد مأوى ولا مهرب، حتى أتم زواجهما عامه السادس.

وفى ذلك العام تعرفت لورا على الشاب باولو، وكان شابًا يافعًا جذابًا يدرس في الجامعة في عامه الأخير، وانتقل للإقامة في سكن خاص قريب من منزل حامد وتعرفت إليه بسرعة أثناء متابعتها لطفلها وهو يلعب في حديقة المنزل، وجذبها إليه بقامته الطويلة الممشوقة وشعره الأسود الفاحم الذي يتطاير مع أقل النسيم ونظراته الجريئة التي يضع فيها خلاصة خبرته وتجاربه في اصطياد الفتيات، وكان يمر وقتذاك بأزمة عاطفية جعلته متعطشًا لوجود أنثى بالقرب منه تشاركه فراشه وعواطفه، وتطورت علاقتهما بسرعة فاندفعت لورا بكل جوارحها نحو هذا الشاب لتعوض إحساسها بالضياع مع زوجها القاسي كبير السن، والذي لا يأبه بمشاعرها، ودائم الإيذاء النفسي والبدني لها، ومن طفلها الذي اتخذ مسلك أبيه في احتقارها وإيذائها بكافة الصور.

أصبحت علاقتهما شريان الحياة بالنسبة للورا، فصارت تقضي وقتها في المنزل مملًا كئيبًا بانتظار لحظة

الإفراج، تلك اللحظة التي يخرج فيها حامد من البيت، حتى تجري مسرعـــة نحو حبيبها باولو ملقيـة بجسدها وأوجاعها في أحضـــانه لتطفئ نار شهوتـــها، وتـــروي أنوثتها التي عطشـــت حتى شارفـت على الموت تحت أقـــدام ذلك الوحـش الجبـار الذي أسَرَها في زنزانتـــه وحرمها الزاد القليل لجسدها الشاب المتفتح ولمشاعرها الإنسانية.

اندمجت معه في حيـاته وشاركتـه أحلامـه حتى أنها كانت تشعر بالقلق عند قرب دخـول حبيبها أي اختبـار في دراسته، ذلك الشعور الذي لم تشعر به تجاه زوجها أو ابنها إذا مرّ بأحدهما مرض أو ألمّ به ألم.

وعاشت لورا ما يقارب العام في اندماج تامٍ مع حبيبها، شاركته عقلها ووجدانها، فإذا ما فارقته بجسدها شعرت أنها تترك روحها معه يتصرف فيها كيف يشاء، حتى جاءت اللحظة الفارقة، فقد أنهى باولو دراسته الجامعية وحان وقت الرحيل والعودة إلى أهله في ساليرنو.

لم تتحمل لورا مجرد الحديث عن فراق حبيبها .. فراق الشخص الوحيد الذي تشعر معه بآدميتها، بكرامتها، بأنوثتها .. ففوجئ بها تخبـره بأنها سوف ترحـل معـه أينما ذهب، وكانت تتكلم بلهجـة حاسمـه لا تسمـح له بالتردد، فشعرت كمن ســـار طويـلًا في طريـق وعرة فإذا ما أدركت قدمه الطريق الممهد، فإنه ينطلـــق بكـل

قوته دون أن يتساءل عن اتجاه الطريق بل يخشى أن تنظر عيناه إلى نهاية الطريق فليس للجحيم عنوان آخر غير ذلك الذي هاجره وغادره بلا رجعة.

وبالفعل سافرت لورا مع حبيبها، رحلت غير عابئة بما تركته خلفها من زوج أو ولد، فلم تكن تشعر تجاههما بأية مشاعر إيجابية، بل كان مجرد ذكرهم كافيًا لتذكيرها بالآلام النفسية والامتهان الذي عاشته في ذلك المسكن الكئيب، تركتهم غير نادمة بل ودون تردد كمن يختار بين الموت والحياة.

وكان الطفل شاهين في ذلك الوقت لم يتم عامه الخامس بعد، وقد كان طفلًا غريبًا مزعجًا كثير الصراخ لأي سبب، وقد كان لهروب أمه المفاجئ وخروجها من حياته بالغ التأثير في نفسيته، وزاد من سوء طباعه وتعاطيه المستمر للكراهية بعد أن استقر في وجدانه أنه شخص غير محبوب، فكان هذا الطفل رغم صغر سنه ينشد متعته الوحيدة في إيذاء الآخرين ورؤيتهم يتألمون فكان إذا خرج للهو مع الأطفال لا يكف عن إيذائهم، فإذا رأى أحد الأطفال يركب دراجة مثلًا كان يختبئ له حتى إذا مر الطفل بجواره يقوم بحركة خاطفة لدفعه حتى يقع على الأرض وكان يضحك بشدة إذا رأى ذلك الطفل يبكي من الألم، وإذا رأى مجموعة من الأطفال يلعبون الكرة كان يجري نحوهم ويخطف الكرة

ويركض مسرعًا ليلقيها في وسط الطريق بعيدًا عنهم، وإذا ارتاد نوادي الأطفال كان ينتهز أي فرصة لإيـذاء قرنائه ممن يتمتعون بالألعاب، إما بإيقاعهم أو إيذائهم أثناء ركوبهم ألعاب الملاهي، ويتفنن في مضايقتهم بأية وسيلة.

أما حامد، فقد اضطربت حياته واختلت عجلتها في يده حين وجـد نفسـه في موقـف مفاجئ لم يخطر له ببـال وهو أن يكون مسئولًا مسئولية كاملة عن ولـده غريب الأطـوار، مما جعلـه يشعـر ولأول مـرة في حياتـه بالخوف والتردد على حياته وعلى مستقبل أيامه، فيجب عليـه أولًا الاستعـانة بمديـرة منزل، تلك التي رفض استخدامها طوال حيـاته الزوجيـة حتى لا تكون لورا سيدة على أحد ويُحكِم عليها أسْره وجبروته، فبدأ حامد رحلة البحث عن مربيـة ونشر إعلانـات في الصحف للبحث عمن تعمل كجليسة أطفال ومديرة منزل بمرتب مغرٍ.

وقد كانت رحلته مع المربيات عجيبة وغريبة جدًا، فلم تتحمل أيهن العمل ولا تلبث أن تلوذ بالفرار بعد يوم أو بضعة أيام على الأكثر، بعد أن تُفاجأ بأنها تتعـامل مـع طفل عدواني أناني يتلذذ بإيذاء الآخرين، دائم الصراخ، ويقوم بسب مربيته ويعتبر ذلك لعبًا ومزاحًا، بل كـان يتفنـن في الأعمـال المزعجـة، كـأن يربط خيطًا بيـن

الكراسي في طريق المربية لعرقلتها ويشاهدها ضاحكًا، أو يسكب الحليب على الأرض وعلى السجاد ويدهسه بقدمه ليراها وقد استشاطت غضبًا من فعله، وهو يضحك في سعادة بالغة، ثم يبدأ في الصراخ الهستيري دفاعًا عن نفسه، مما يثير غضبها لحد يقارب الجنون.

بل وصل به الأمر إلى أنه غافل إحدى المربيات أثناء وقوفها في ردهة المنزل وتبول عليها، حيث كان واقفًا في الدور العلوي، وكان إحراجها وصراخها يسعده ويرتفع معه صوت ضحكاته.

فلم يتحمله أحد، ولم تفلح معه أي محاولة للتقويم والتربية السليمة، وانتهى بهن الأمر جميعًا إلى الفرار من جحيم هذا السخيف، بل إن منهن من غادرت فرارًا دون إخبار والده، ودون تقاضي أي أجر، وظل الأمر هكذا حتى وصل عدد المربيات اللاتي دخلن هذا المنزل وهربن منه على مدار عام كامل سبعة مربيات، لم تدم خدمة إحداهن أكثر من أيام قليلة، وسرعان ما تترك المنزل بلا عودة، ولم تترك إحدى أولئك المربيات أثرًا في نفس الطفل إيجابًا أو سلبًا.

حتى تقدمت سيلفيا لهذا العمل، وهي فتاة تخطت الأربعين بقليل دون زواج، في حياة مضطربة، ومع ذلك فلا تخلو ذاكرتها من أحلام وطموحات لا تناسب واقعها الخاص، فرغم جمال وجهها إلا أن قوامها كان

دائمًا ما يلفت عنها الأنظار، إذ كانت مكتنزة القوام لا تستطيع إبراز المفاتن المعتادة للنساء، ولا تجيد التعامل مع شعرها الأحمر المجعد الذي كان يكلفها كثيرًا من الجهد للاعتناء به في ظروفها المحدودة، وما إن دَلَفت إلى غرفة المكتب حتى رأت حامد بمظهره المهيب خلف مكتبه الخشبي الفاخر، يرمقها بنظرة فاحصة قبل أن تتدلى جفونه باستعلاء اعتاد عليه في حديثه إلى مستخدميه، وحتى يبدو ارتخاء جفنه المزمن كحالة استخفاف بمحدثه، بيد أنها كانت تهمس داخل نفسها فيم يفكر هذا المتباهي، ربما رأى شعرها الذي بذلت معه الكثير من الوقت ليس في أفضل حالاته وربما ساءته حُلّتها الرديئة التي اشترتها قبل عامين أو ربما اتجهت أنظاره إلى مناطقها الدافئة التي حرّمتها على الرجال لمدة قاربت ثمانية أعوام كاملة، حين قررت أن تُخلص بجسدها لرجل يستحق التفاني ويبادلها الإخلاص في الشراكة، فلا يكونان كالحيوانات التي تتعاطى النشوة مختلطة بفضلات الآخرين، وإذا هي غارقة في تلك الخواطر بادرها بالسؤال:

- ليست لكِ خبرة طويلة كجليسة أطفال، كما لم يسبق لكِ العمل كمديرة منزل.
- من أين لي بالخبرة الطويلة في هذه السن؟!

فتلمع عيناه كمن شرعت الابتسامة أن تفك أسْر شفتيه إلا أنه عاجلها بقيوده، وقد انتبه إلى الإشارة البارزة في عبارتها أنها شابة صغيرة ما تزال مطمعًا للرجال، فأومأ برأسه مغمضًا عينيه بالموافقة.

فاستأذنت للانصراف، واصطحبها سائقه الخاص إلى حيث المنزل الخشبي الجميل المحاط بحديقة قطعت أشجارها لتحل محلها مجموعة من ألعاب الأطفال المتناثرة في كل مكان، ليبدو المكان وكأنه أحد رياض الأطفال المتخصصة، فتذكرت الأشهر الثلاثة الأخيرة التي قضتها في ضيافة صديقتها كاتي، بعد أن اضطرت لترك الغرفة التي كانت تستأجرها في الضاحية الجنوبية لعدم قدرتها على سداد الأجرة، وها هي تلتحق أخيرًا بحلٍ لأزماتها حيث العمل والإقامة.

فنظرت إلى السائق الذي بدا متجهما خلف نظارته الشمسية التي تستقر فوق وجنتيه البارزتين وتبدو شفتاه الدقيقتان وكأنما خطهما قلم، مما أظهره كتمثال لا يبدو عليه من مظاهر الحياة شيء، بل أنها ظنت أنها ترمي بسؤالها إلى التأكد من أنه بشري يتنفس وليس تمثالًا من الرخام، لتعاجله بالسؤال:

- من يقوم برعاية هذا المنزل الكبير وهذه الحديقة؟

- السيـــد حامد يستعيــن دائمًا بالمتخصصين في كل شيء، ولا يتعدى عملك ما اتفقتم عليه.

ولم يعقب ولو بابتسامة تخفف من حدة الموقف، وكأنــه ينـذرها بما ينتظرها بالداخل، ثم أوقف السيـــــارة أمـام البوابة، وترجل معها عابرين الحديقة إلى المنزل، وفتح الباب الإليكتروني ثم نادي ..

- شاهين .. شاهيــن، الآنسة سيلفيا المربية ستتولى كل أمورك من الآن.
- تشبه أنثى الخنزير ..

فاندفعت ضحكـة حــادة من السائق الذي كان منذ دقـائق لا يشبه الأحياء، وشعرت سيلفيا بسخونة تتصــــاعد إلى رأسها وتنعكس على وجهها الأشقــــر الذي بـدا وكأنه مصبوغ باللون الأحمـــر، فقـد شعرت بضحكة السائق كإهـــانة مباشـــرة ابتلعتــها من المكـان، فكأن كيـــانها وكرامتــها قد سكبهـما الطفـل على الأرض، فمسحتــها ضحكة السائق، ولم تجد بُدًا من الاستســلام، فما جدوى أن يُعبر عن نفســـه من لا يراه الآخريــن موجودًا مـن الأصل؟!

حاولت معالجة الموقف بأن وضعـــت يــدها على رأس الطفل قائلة:

- أهلا يا حبيبي ..

فما كان منه إلا أن دفع يدها بعنف، والتفت متوجهًا إلى السلم ليصعد إلى غرفته بالدور العلوي.

- أستأذن بالانصراف.

قالها السائق والتفت دون أن ينتظر منها ردًا على كلامه، فارتبكت بشدة ولم تجد أمامها مكانًا تذهب إليه سوى المطبخ، جلست على أقرب مقعد وتلقفت رأسها بين يديها في لحظة تفكير لاستيعاب الموقف برمته، وبينما هي مستغرقة في التفكير في وضعها في هذا المنزل، وتعاملها مع ذلك الطفل الأخرق وقعت عيناها على صندوق الشيكولاتة الموضوع على طاولة المطبخ ففتحته مسرعة وبدأت بتناول قطعة منه طابت لها كثيرًا فقد كانت تعرف عن أنواعها الكثير، وتهتم باختيار المذاق والتعرف على الجديد منها، ثم لحقتها بأخرى بينما أمسكت بالثالثة في يدها، وقامت لتصنع لنفسها فنجانًا من القهوة، وبينما هي تراقب القهوة على الموقد إذا بها تشعر ببرودة في ظهرها، وكأنه أصابه البلل فالتفتت فجأة لتجد الطفل خلفها وقد أمسك في يده لعبة بلاستيكية على شكل سمكة يطلق منها سائلًا أخضر نحوها، وهو يضحك بشدة، فاستشاطت غضبًا وهرولت نحوه، إلا أنه ركض مسرعًا صاعدًا من حيث أتى.

فتابعته صارخةً:

- قرد قبيح ... !!

وحـــاولت كبــت انفعــالها حتى لا تخســر هذه الوظيفة المريحـة والمرتـب المغـري، بالإضافة إلى الإقامـة في هذا المنـزل الرائع، وبعد أن استجمعـت قواها ومحـت الآثار التي علقت بثوبها، تذكـرت أن الطفل ربما يحتاج إلى الطعام، فأعدت بعض الشطـائـر وكوبًا من العصير الطازج، علّها تكون تشجيعًا للطفــل على التقـرب منها وحسن معاملتها.

فصعدت السلم الخشبي وطرقت باب الغرفـة، فلم تسمع جوابًا ففتحـــت الباب واتجهــت إلى المنضــدة لتضـــع صينيتها، فإذا بها تقع على الأرض، وتتلقـف في وجهها المشروب والطعام عندما أمسك الطفل بقدمها من مكانه الذي يختبئ فيه أسفل السرير.

فقامت ونظرت إليه، وكادت تفتك به، لكنها قالت:

- إن الأشباح ستأكلك إذا فعلت هذه السخـافــات مرة أخرى ..!

وكانــت هذه أول مرة يسمــع فيها الطفل كلمة أشبـــاح، فارتعدت فرائصـــه خوفًا، واهتزت عيناه بعصبية شديدة من أثر ذلك.

وبعد ساعة، بينما تجلس سيلفيا في غرفتها شاردة في أحـلامها الخـاصـة، فما تزال صـورة هذا الوحـش الإنساني الذي تعمل لديه وما يحمله جسده من خشونة عالقة في ذهنها، وتثير في نفسها مشاعر ظنتها منسية من قبل، وسرت قشعريرة في بدنها وهي تتخيـل نفسها بين ذراعيه، ودقت نبضات الحياة في أوصالها ومخابئ جسدها الذي حسبته صنمًا مهجورًا معزولًا عن البشر، وما زال التساؤل يدق رأسها دقًا: لماذا هذا الرجل بالتحديـد؟ قد يكـون هـذا هو الرجل المخلـص الذي انتظرته طويلًا، الرجل الذي قد فرغت الدنيا من حـوله ليتفرغ لها بوجدانه وجسده، وبينما هي على هذا النحـو تنـاهى إلى مسـامعها دبيـب أقـدام عرفتها بأنها للطفل شاهين، لابد أنه شعر بالجوع وذهب إلى المطبـخ باحثًا عن الطعام، ففتحت باب غرفتـها ببطءٍ وحـذر لتراقب الموقف أولًا قبل أن تتحرك خوفًا من تكرار أحد مواقفه السخيفة، فلم تراه لكنها سمعت صوتًا يعبر عن فتح باب حافظة الطعام الكهربائية، وتلتـها أصـوات تعني أنه قد عثر على ما يريد، فوقفت متـرددة بين التحـرك لتقديم الطعام إليه، وبيـن أن تقـف ساكنـة في موقعها، تراقب الموقف أولًا، لكنـها حسمت الأمر سريعًا، فتلك مهمتها التي تتقاضى عنها راتبها، وتستحق بها الإقامة في ذلك المنزل، بل أن جوهـر العمل وأساسه هو التعامل مع هذا الطفل.

لم يطـل ترددها، فتوجهـت إلى المطبـخ لتجـد الطفـل ممسكًا بالعلبـة التي تحتـوي على زبدة الفول السوداني ويتناولها بإصبعه في نهم وجوع، فبادرته قائلة:

- أتحب البطاطا المقلية؟

فأومأ برأســه موافقًا، فبدأت في إعــداد البطــاطا وهي تبتسم ابتسامة صافية تعرف تأثيرها جيــدًا على الطفل الذي يبدو عليه الجزع دون سبب محدد، ثم قالت:

- أتحب النقانق؟
- إنها بشعة!
- أتحب البورجر؟

أجابها مبتسمًا:

- نعم .

فأعدت له الطعام، ووضعته أمامه، وهمت بالانصـراف من المطبخ قائلة بنبرة حانية من تأثير الحالة التي كانت عليها:

- نادِني عند فراغك من الطعام.

فأجــابها:

- لا تذهبي ..

فجلست بجواره وهي تتعمـــد ألا تنظـــر إلى يديـه وهـو يأكل لعلمها بتأثيـــر ذلك على مثل هذا الطفـل، وإن كان الفضـــول يقتلها لتـرى أصابعه المغروسة في الطعـــام، لكنها قاومت فضولها منعًا لاستثارته، فعاجلها بسؤاله:

- من هم الأشباح؟

فوجئـــت بسؤاله، وأطرقت للحظـات قبل أن تجيبه:

- ليست لهم أسماء نعرفها.
- كيف؟
- الأشباح كائنات ضخمة، مكونة من النيران، تعيش تحت الأرض وداخل الجدران.
- هل ستحرقني؟
- إذا أغضبتني فستحرقك، أو تأكلك كإصبع الموز.

فأجفل الطفل وبدا عليه الخوف الشديد، فبادرته بقولها:

- لا تخف يا صغيري، ما دمت تطيعني لن يمسسك سوء، وإذا صعدت معي إلى غرفتك الآن سأروي لك قصة طريفة.

بدأت في سرد إحدى قصص الأطفال التي تنشط خيالهم وتذهب بهم بعيدًا عن الواقع، مما يساعدهم على النوم، ولم تتمها حتى ذهب شاهين في نوم عميق.

وعــادت سيلفيا إلــى غرفتــها غــارقـــة في خـواطــرها مستسلمة لأحــاسيســها، حتى وصــل حامد من العمل ثم دخل إلى المنزل ليشتم رائحة يعرفها جيدًا، مما دفعــه إلى البحــث في أغــراض زوجتــه حتى وجد ضـالته، فاستدعى سيلفيا صارخًا:

- أين أغراضك؟
- لماذا؟
- لقد سرقتِ أدوات زوجتي للتجميل.
- يا فندم .. !
- الشرطة كفيلة بالتعامل مع أمثالك.

فخرجت سيلفيا مسرعة لا تلوي على شيء، واختلطــت دموعـها بمساحيق التجميل، وامتــزج عرقـها برائحـــة العطــر سبب المهزلة، وتملكها شعـــور جــارف بأنها تتمنى لو أن سيارة مسرعة تصدمها لتغمض عينيها إلى النهاية وألقي القبض عليها وهي غارقة في اضطرابها، ودخلت غرفة الحجز، ودار أمامها شريــط حيـاتها منذ نعومة أظفــارها وقت توفي والداها في حــادث سيــارة حين كانت في الرابعة من عمرها، وانتقلت لمنزل عمها لتقيم فيه كالقطة، لا تملك الحق في شيء إنما عليها أن تنتظــر من يمنحــها أي شيء من الطعـام، أو يــأذن لها بالتعامل مع أي شيء في المنـــزل، وتمزقها الذكريات فلا تنسى نظــرات الشـــك التي كثيــرًا ما ألهبتــها بها

صديقتــها كاتي في مناسبــات عديـــدة حتى اعتـــادت الهروب الدائم من التقاء عيونهما، ولم تكــن تعلق على ذلك إلا بالهروب من الشقة قبل موعد وصول صديقــها جيباني، حتى تنفــي عن نفســها أي شكــوك بمحـــاولة استــدراج الحبيب الذي لم تفكر فيه يومًا بينما تنكـــر حقيقة الشك الذي عذبها منذ الطفولة، حتى أنها لم تتجرأ أن تنظـــر إلى عيــون صديقتها وهي تخبرها بالوظيفة التي قرأت عنها إعـلانًا في الصحـف، تلك الوظيفة التي تريحها من عذاب الإيواء خشية أن ترى نظرة الارتياح فيها .. أوااه .. ما أقسى تلك النظرة!

تدافعت خواطرها وأغمضت عينيها، ولولا أنها خشيت أن تمتــد يـدها فتستــل سكيـنًا تنهــي بها حيــاتــها التــي تواصلــت كسلسلة من العـــذاب لما عـاودت فتح عينيها أبــدًا.

بينما هــي على هــذه الحــال حضـــر حامد إلى مقـــر الشرطـة، مؤكدًا أنه راجـــع أغراضــه فلم يجـد شيـئًا منقــوصًا سوى أشياء بسيطة من أدوات التجميـل، ولم تمتــد يــدها إلى أي من الأشيـــاء الثمينـــة، وبالتالي فلا يوجد مبرر لاحتجازها، قال عبارته تلك أمام ضابط الشرطــة ببـــرود زاد من إثـارة أعصـــابها، فعلقـــت على ذلــك:

- قبل أن أعود للمنزل، هل تأكدت إنني لم أضع سمًا في طعامك ؟**!!**

فنظر إليها مستنكرًا إهانتها له، فكأنها تتهمه بالسفه أو بجنون الارتياب، وعلق قائلًا**:**

- أضف إلى بلاغي أنها تعاني اضطرابات نفسية**.**

ثم وقّع على أقواله، وخرج من المخفر، دون أن ينتظر مصير بلاغه وانصرف إلى منزله، وفي الطريق عاودت جملتها تطن في رأسه وتقرعه بقوة، وألحّ عليه التساؤل**:**

- ماذا يحدث لو **...** ما هو مصير شاهين لو مُت الآن **..** حد ضامن عمره ؟**!** ما هو مصير ابني لو تركته وحيدًا في هذا البلد؟

ولم يطل تفكيره فقد حسم أمره وقرر من فوره أن يبادر بتصفية جميع أعماله ويعود إلى مصر، ولكن إلى أين؟ هل يعود إلى مسقط رأسه كفر هورين – المنوفية ؟**!** يعود ليعيش مع من ؟؟ أبيه وأمه **..** هل ما زالا على قيد الحياة **-** أحدهما أو كلاهما ؟**!**

إخوته **..** ترى ماذا فعلت بهم الأيام ؟؟ فإذا كانوا على حالتهم من البؤس والشقاء الذي تركهم عليه فان عودته إليهم لا تعني له إلا المتاعب، وماذا يمكن أن يفعلوه

بولده ليستولوا على ميراثه وملايينه؟ وهل يمكن اعتبار هؤلاء أهلًا حقيقيين يأمن على ولده بينهم؟!

هل يعود إلى القاهرة ؟ إلى أي حياة يعود ؟ فلا تختلف القاهرة عن نابولي، بل إن المقارنة بينهما في صالح نابولي في كل شيء.

أما سيلفيا فلم تتحرك من أمام ضابط الشرطة الرقيب بونوتشي الذي تأثر بدموعها، ولم يبارحها حتى قصت عليه قصتها من أولها، وهو متكئ على مقعده خلف مكتبه العتيق، وحين انتهت بادرها قائلًا:

- ما قولك في العمل معي، لدي مزرعة صغيرة للعنب على خليج نابولي، وبها مكان مناسب لإقامتك.

وكان بونوتشي مهيب الطلعة بوجهه المستدير وشاربه الأبيض الكثيف الذي يتناسق مع رأسه التي أنهكه الصلع والشيب، ليبدو مليئًا بالحكمة لشخص يوحي بالثقة بصورة تجبر محدثه على الإنصات لحديثه بل والاستجابة لطلباته التي يلقيها بوضوح لا يخلو من الحزم، مع التأكيد على تفهم مشاعر محدثه.

- أنا الآن كالغريق في بحر لا شاطئ له، وأشعر بأنني غير قادرة على اتخاذ قرار.

- جربي وسوف نؤمن لكِ مسكنًا مناسبًا، فنحن بحاجة إلى أمثالك بالفعل.

ففهمت إشارته بأنها مأوى للضعفاء والمعوزين، ولكنها جادلت نفسها، فكيف لها أن تمتنع، وقد رأت في عينيه نظرة الأب الذي حرمت منه، حتى عمها شيرازي كان رجلًا متحجر القلب لم يمنحها أي مشاعر، وقالت في نفسها:

- لا تخدعي نفسك، فربما هو ذئب يصطاد فريسته من الفتيات الضالات بلا مأوى، ليس لدي شيئًا أخسره، وربما تخلصني أجواء الريف من هواجس الأشباح التي تحرمني النوم ليالي طويلة سوداء، وقد أجد الأمان والسكينة في هذا المكان بعيدًا عن جفاف المدينة وقسوتها.

أما شاهين فقد قضّت الأشباح مضجعه وأيقظته مفزوعًا من نومه حين رآها تأكل ساقه والنار تشتعل في جسده، ولم يعد حلم الأشباح غريبًا عليه مذاك، فقد تكررت أحلامه تلك على فترات متباعدة.

وبالفعل عاد حامد إلى مصر، ولكن هذه المرة كأحد كبار الأثرياء بعد أن تضاعفت ثروته في الغربة إلى الحد الذي مكنه من شراء عزبة كاملة في أحد المناطق الجديدة في محافظة البحيرة، وبنى لنفسه قصرًا

اسطوانيًا فخمًا محاطًا بحديقة من أروع الحدائق على شكل دائرة كاملة الاستدارة، وقام كذلك ببناء مستشفى ومدرسة في العزبة لتعليم أبناء المزارعين، بالإضافة إلى مصنع مواد بناء بالعامرية، وعمارة بالإسكندرية.

التحق أدهم عبد الحميد بالعمل لديه، كجنايني في بداية الأمر، في إحدى المفارقات العجيبة أن يتقدم معيد في كلية الزراعة بكفر الشيخ، قسم زهور وزينة ليشغل هذه الوظيفة والراتب الذي يتجاوز خمسة أضعاف راتبه من الجامعة، ذلك الراتب الذي كان يضيع معظمه في المواصلات من قريته البصراط - على حدود البحر الأبيض المتوسط - إلى مطوبس ومنها إلى كفر الشيخ، وكثيرًا ما عجز عن إيجاد ناقلة الركاب متوفرة في مطوبس، فيضطر إلى الذهاب إلى فوه أو دسوق، ومنها إلى كفر الشيخ، فكان يخرج من منزله قبل موعد العمل بثلاث ساعات.

إلى عملٍ لا يبعد عن قريته أكثر من ساعة واحدة على مواصلتين حيث عزبة الزعفراني التابعة لمركز إدكو، والأهم أن ذلك إعلانًا لتمرده على الوضع الشاذ الذي وضع فيه أمثاله من النابهين والمتفوقين الذين لا يجدون أي تقدير لكفاءتهم في نظام لا يحترم العلم، ولا يمنح أهله المكانة اللائقة، ولا يعطيهم سوى الإهمال ولا يفتح لهم طريقًا سوى الإحباط.

كان قد اتخذ قراره بالبحث عن عمل يؤمن له متطلباته، بعيدًا عن التمسـك بأهـداب المركـز الأدبي الذي يفقد جـدواه إذا لم يؤمـن لصـاحبه الحـد الأدنى من الحيـاة الكريمة، ولا يستطيع تحقيق أساسيات المستقبل وأركانه الرئيسية ومن أهمها الزواج ممن أحب، من حبيبته وفاء بنت قرية محلة موسى التابعة لمركز كفر الشيخ، والتي أحبـها ولا يحتمـل حيـاته دونها، وكثيـرًا ما حلـم بأن تجمعهما شقة واحـدة في مدينة كفر الشيخ، والتي يصل سعر الشقـة فيها لمبـالغ أعلى من أسعـارها في أحيـاء كثيرة في القاهـرة، والتي اعتاد ألّا ينام إلا على صوتها يأتيه عبـر الهاتـف هامسًا مفعمًا بالدفء والاشتيـاق فيتذكر وجهها الصغيـر الملائكي، وبشرتـها البيضـاء الناعمة كالأطفال، وعينيها العسليتين وجسمها المتناسق الذي يحمل أنوثة ناعمـة، فيلتقط صورتها في وجدانـه، ويحتضنها بجفونه، لا يغادرها حتى يأخذه النوم بعيدًا.

وكثيرًا ما رفض أدهم نظرية شخصنه المهن وتصنيفها والتقسيـم الطائفي للمجتمع وفق المسميات الوظيفية، ثم أنه حسـم أمره بين اختيـار أحد الطريقين .. طريق ما يغضـب الله ويتعـارض مع أخلاقـه، كأن يعتمـد على التكسب من بيع الامتحـانات للطلبـة، أو قبـول الهدايا والعطايا منهم لتمييزهم ومساعدتهم على تجاوز من هو أحق منهم وأجدر، أو تغييـر المسار من الناحية الشكلية فقط، ولتسقط تلك القواعد الاجتماعية البالية.

وها هو حامد الذي علمته الدنيا الكثير، قد أحسن الظن به من أول نظرة، فبعد شهور بسيطة استدعاه وأخبره بأنه سوف يعتمد عليه كمشرف عام على أعمال الزراعة بالعزبة بالكامل، وأنه لم يرصد له هذا الراتب الكبير لرعاية حديقة المنزل فقط، ولكنه أرادها فرصة لمراقبته وتقييمه قبل أن يعهد إليه بهذه المسئولية.

وعلى الرغم من حالة الاستفزاز التي أصابت أدهم من حديث التقييم والاختبار، إلا أنه استراح لذلك، فقد وضع هذا التغيير حدًا لانزعاجاته من الوظيفة، بأن وضع في موقع اجتماعي لا يستحي منه، وها هو المجتمع كذلك قد وجد ضالته، حتى أنه تمكن من مصارحة أبيه بحقيقة عمله، دون أن يشرح له بداية الرحلة، وسبب توجهه من الأصل تفاديًا لغضبه، وكفًّا لعناء الدخول في تفاصيل المصطلحات الاجتماعية التي لم يقتنع بها يومًا.

أراد حامد إلحاق ابنه الذي جاوز السابعة من عمره بالمدرسة بعد أن تم بناؤها، إلا إن السيد ناظر المدرسة وإجلالًا لحضرة صاحب العزبة طلب منه أن يبقى الولد في المنزل مع إتمام إجراءات التحاقه بالمدرسة، وعلى أن يذهب المدرسون إلى القصر في المواعيد التي يحددها سيادته لتعليم الطفل المدلل.

وبالفعل بدأت رحله شاهين مع التعليم، وبدأت معاناة المدرسين معه، فقد كان بطيء الفهم، شارد الذهن، ضعيف التركيز، وكان تحصيله في الإجمالي على أقل ما يكون التحصيل، ولكن نظرًا لمكانة والده فقد كان يتجاوز الامتحانات كل عام، وإن غاب عن حضور بعض تلك الامتحانات، فقد كان ناظر المدرسة يتدخل في النتيجة خوفًا من بطش الأب .

وقد استقر أدهم تمامًا وأحسن تنظيم وقته بعد استقالته من الجامعة، ولم يغب يومًا عن العمل إلا في يوم واحد لوفاة والده - بعد نحو عام من عمله في العزبة، فذهب إلى القرية، ودفن والده مصرًا على عدم إقامة أي سرادقات للعزاء، تلك المظاهر الاجتماعية البالية من وجهة نظره، حيث يتحول الحزن إلى مسرح يستعرض فيه كل شخص قدرته على تقمص الدور الذي يحب أن يراه الناس به، متبارين في استحضار الهيبة والوقار وإيضاح مدى تأثرهم المصطنع، وكأنهم يتعظون بحق من الحدث الجليل.

ثم استطاع أخيرًا أن يحقق حلمه بالزواج من محبوبته، بعد أن اشترى الشقة المناسبة في مدينة كفر الشيخ وأقام لزواجه فرحًا شاملًا بدون تقصير في أي اتجاه، فأقام وليمة كبيرة في قريته البصراط، دعا إليها أهالي القرية ليلة الحناء، ليحافظ على مظهره في قريته، كما أقام

حفلـة مناسبــة في قاعــة صنعـاء بمدينــة كفر الشيخ، دعا إليها المقربين من عائلتـه الذين أصرت والدته على دعوتهم بالإضافة إلى حامد الزعفراني وبعض المقربين له من عزبـة الزعفراني، مع أهـــل العــروس الذيـن أسعدهم ما يجمعه شريك ابنتهم من العلاقات الاجتماعية المحترمة، والإمكانيات المادية المشرفة.

وقد سيطر على العريـس إحسـاسه، وكأن قاعـة الحفـل تستمد إنارتها من تلك الثريا المتلألئة التي يزدان بها المقعــد المجاور له، والتي بدت بالفعل كأحد أميـــرات القصـور الملكية بجمالها الأخاذ، تشع البهجـة والمـرح في المكــان بابتسامتها الرائعـة من تلك الشفــاة الرقيقـة المكتنــزة، والتي تبدو منها أسنانها الناصعـــة لتضــيء القاعة بمصاحبة ذلك البريـق الرائع من فرحـــة عيونها العسلية الواسعة، ولم تزدها مساحيـق التجميـل الخفيفة إلا جمالًا، حتى إن السيدة الكوافيرة أكدت لها بنبراتٍ دافئة وسط الزغاريد ..

- سبحان الخلاق يا بنتي .. ده أنتِ شق القمر !

ولم تكن تبالغ، فلم تبذل معها مجهودًا كبيرًا في تجميل ذلك الوجه الجميل، إنما بذلت بعض الوقت في تثبيـت الطرحة البيضـاء التي أصـرت عليها العـروس لتخفي شعرها الحريري الذهبي، الذي يقـاوم بنعومتـه عمليات التثبيت.

لعروس تفيض بساطــة ورقة، منحت الليلة مذاقًا خاصًا بما أضــافته روحها العذبة على الجميــع، لتكون عنوانًا لسعادة الشريك الذي عشقها وأدمن عشقها بكل جوارحه ووجدانه.

ومرت السنون وهو لا ينفك أثيرًا لدى حامد، وتطور الأمر حتى أصبح بالفعل مديرًا لكل أملاك حامد بمعنى أنه المديــر الحقيقــي لكل شؤون العزبة، بالإضــافة إلى مصنــع مواد البنـــاء، وعمـارة الإسكندرية التي تؤجــر شققها مفروشة للطلبة طوال العام الدراسي، وبانتهائه يقوم أدهم بتأجيرها للمصيفين في أشهر الصيف.

واستمــرت معاناة المعلمين مع شاهين حتى وصـــل إلى السنة النهائية للمرحلة الإعدادية، وفى تلك السنة التقى حامد بالأستـــاذ عثمان، مدرس أول العلوم الذي التحــق بالعمــل في المدرســة في مطلــع هذا العـــام الدراسي، فاستدعاه إلى القصر.

حامد:

- أهلا أستاذ عثمان.
- أهلا بحضرتك.
- أنا عرفــت إنك من الأســاتــذة الكبــار في مادتـك، ويا ريتك تهتم بشاهين شوية، أنت ها تلاقيه شاطر

وها تنبسط منه، هو شقي شوية بس شاطر، وطلباتك .. ما تنعاش هم الفلوس.

- المسألة مش فلوس حضرتك، المهم مستواه.
- على الله وعليك إن شاء الله.
- الله المستعان ..

ولم يكن حامد يعرف حقيقة مستوى ولده، فكان حامد رغم ذكائه أميًا لا يعرف القراءة أو الكتابة، وكان مخدوعًا بمجاملة المدرسين له، ومدحهم لولده الذي كان ضعيف المستوى بدرجة ملحوظة، ولولا مجاملة المدرسين وتدخُل الناظر لما تجاوز أي سنة من سنوات الدراسة.

اصطدم عثمان بحقيقة مستوى الطالب، وأنه لا يعرف أساسيات المواد، وشعر بصعوبة العمل معه، بل واستحالة وصول مثل هذا الطالب إلى المستوى المناسب لاجتياز الامتحان في نهاية العام.

فلم يجد الأستاذ المحترم بدًّا من مواجهة الأب بحقيقة الموقف، فجلس أمامه واضعًا ساقًا فوق الأخرى في بدلته البنية التي تبدل لون أطرافها مما يوحي بكثرة استعمالها، فكان مظهره في جملته مستفزًا لحامد، فكان يُلمّع شعره بالفازلين، ويحافظ على شاربه الرفيع جدًا وكأنه خط بالمسطرة، ولا يغير بدلته، كما يحافظ على اعتدال رقبته أثناء المشي أو الحديث مستعملًا عينيه

بصورة تحمل بعض الكبرياء، لكي يبدو كالعالم ببواطن الأمور.

- شاهين يا حامد بيه مستواه وحش جدًا.
- إيه .. إيه .. أنت بتقول إيه ؟!!
- بأقول لسعادتك مستواه ضعيف، ومش ممكن ينجح بالطريقة دي، ده ما يعرفش الأساسيات، ده بيغلط في القراءة أخطاء واضحة، والكتابة بيكتب بالعافية.
- أنت بتقول إيه يا أستاذ – ساخرًا - أمال وصل ثالثة إعدادي إزاي ؟!
- ده سؤال تسأله لناظر المدرسة والمدرسين اللي نجّحوه طول السنين اللي فاتت، وبعدين أنا ملاحظ أنه مدلع بطريقة غريبة، ومش مهتم بالمذاكرة ولا بأي شيء.
- ما أنا قلت لك هو شقي شويتين بس ذكي وشاطر.
- عايز أقول لسعادتك حاجة، من خبرتي في التعليم وتعاملي مع التلامذة في السن ده، إن القسوة في تربية الأولاد بتفيدهم حتى لو غلط أحيانًا، لكن الدلع بيضُرّهم حتى لو كان صح، الابن اللي بيتربى يتيم أو في ظروف صعبة، أو لأب قاسي ما بيتفاهمش، ممكن يفشل لكن في الغالب بينجح وبعضهم بينجح جدًا، لكن الابن اللي أهله بيدلعوه وما بيعاملوهوش بالثواب والعقاب عمره ما بينجح

لازم يفشل وأهله بيبقوا جنوا عليه بدلعهم الزايد، لازم يعلموه إن يبقى له هدف في الحياة.

- أنا مش فاهم .. طب العمل إيه دلوقت؟!

لو محتاج أي عدد من المدرسين أنا مستعد، ومستعد لأي تكاليف.

- الموضوع مش مدرسين، المهم التلميذ نفسه يكون عنده استعداد يتعلم .. أنا رأيي ما تتعبش نفسك، وسيبه يحصل اللي يحصله من التعليم، وهو ونصيبه .. بعد إذن حضرتك.
- ها تسيبه بردو .. ده هو محتاج لك وأنا مستعد ...
- ما تكملش حضرتك، أنا لو شايف أي فايدة كنت كملت معاه، ولو في أي أمل .. لكن بصراحة بالوضع ده .. أنا شايف إني بأضيع وقتي، وما استحقش أجر عن عمل مش مفيد، عن إذنك .. سلام عليكم.

حامد يجلس واجمًا حائرًا من صراحة هذا المدرس، ولم يستطع أن يثنيه عن موقفه، بل إنه في الحقيقة لا يخفي إعجابه بهذا المتحذلق الذي أهاج عليه خواطره وذكرياته بإصراره على مبادئه رغم المغريات لدرجة أنه حدث نفسه:

- جرى لك إيه يا حامد ؟! إزاى وقفت ساكت قدام الراجل ده وهو عمال يديك دروس، بصراحة عجبني .. ومن امتى بيعجبك حد ؟!
إيه اللي غيّرك يا حامد ؟! يمكن خيبة أملك في ابنك ... أيوه هي دي، خيبة أملي.

لم ينم حامد في تلك الليلة، فقد أثار حديث المدرس عثمان معه كثيرًا من شجونه، وجعله يراجع شريط حياته، وجلس يحدث نفسه:

- إيه اللي هزّك كده ؟! ده أنت جبَل عمرك ما خفت ولا اتهزيت، علشان قال لك ما خدش فلوس من غير فايدة .. من غير شغل، كأنه بيقول لك فلوسك حرام، ودي آخرتها.

ومرت بضعة أيام على هذا الموقف، قضاها حامد مطرقًا شارد الذهن، زاهدًا في الطعام وفي الكلام، وبينما هو جالس في شرفة القصر على هذه الحال حضر إليه عوض الجنايني ..

- حامد بيه .. حامد بيه .. يا بيه ...

حامد لا يرد !!
فيقترب منه عوض، ليجده جالسًا على الكرسي مفتوح العينين، وبدون حراك .. فيمسك يده، ويفاجأ، فيصرخ:

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. الحقني يا عم حسنين، البيه ما بينطقش.
- ما بينطقش ... ده باينه مات.
- إنا لله وإنا إليه راجعون!

أما شاهين، فكان استقباله للخبر بغرابة أدهشت حسانين البواب عندما أبلغه، فلم يبدُ عليه الحزن المتوقع في مثل هذا الموقف، بل بدا عليه الخوف الشديد، فقد امتقع وجهه واصفرّ لونه، وارتعدت يداه في هلع واضح كمن يقف مكتوف الأيدي أمام قطار سريع.

فقد شعر شاهين بأنه ألقي به بعيدًا عن حماية والده، فكان كمن سقط في عرض البحر فجأة وبدون مقدمات، ولم يحضر شاهين جنازة والده، بل ولم يدخل سرادق العزاء، وظل جالسًا في فراشه مذعورًا لا ينطق بكلمة، ولم ينم ليلتها، وظل مستيقظًا في فراشه حتى الصباح.

ومع وضوح النهار، استقل سيارة والده الفارهة وانطلق مغادرًا القرية في سرعة جنونية، دون أن يجيب على نداءات من حاولوا إيقافه، فكان مشدوهًا أشبه بالغائب عن الوعي.

إحدى الفلاحات:

- يا حول الله .. الواد تايه يا ضنايا.

ترد أخرى:

- معذور .. عيل بردو، وما كانش ليه غير أبوه.

ويطير شاهين بالسيارة بأقصى سرعة وبدون تفكير إلى أين ينتهي به الطريق، حتى اقترب من القاهـرة وهنـاك يدخل أحد المطـاعم المشهـورة، وعندما يأتي الطعـام يتركه دون أن يأكل منه شيئًا ويخرج مسرعًا ويدور في شوارع المدينة على غير هدى، حتى يرى أحد محـلات بيع الخمور .. فيتوقـف أمام المحل، وينزل من السيارة إلى داخل المحل، ويخرج من جيبه رزمة من المال ..

- صندوق ويسكي

يضع عامل المحل الصندوق في حقيبة السيارة ويستمـر في سيره متجولًا في شوارع القاهرة، حتى حل ظـلام الليـل، وقد بـدأ يشعـر بالتعـب والإعيـاء عندما وصـل بسيارته إلى منطقـة جبل المقطم، فأوقف السيارة ونزل منها، وفتـح حقيبـة السيـارة، وفتح الصنـدوق وأخـرج زجاجة وفتحها، وبدأ يشـرب منها كالجوعـان، وارتمى على مقعد السائـق وفى يده الزجاجـة، ولكن وقبل أن ينتهي من تجـرع زجاجته كان قد فـارق الوعي، ودخل في نوم عميق، نوم لم يوقظه منه إلا لفحة الشمس على وجهه في اليوم التالي، وكان في الوقت نفســه قد شعـر بعضة الجوع، فأسرع بسيارته حتى مر بجـوار مطعـم

المسحراتي، وأزكمت أنفه رائحة الطعمية التي يقلبها العامل في الزيت، وسال لعابه وهو يرى أطباق الفول الساخن والباذنجان المقلي، فبذل جهدًا ملحوظًا ليتحكم في أعصابه، حتى يتمكن من ركن السيارة في الحارة الداخلية ليتمكن من طلب الفطور، ثم تناول طعامه بنهم شديد، وتوجه بعد ذلك إلى محل الخمور الذي زاره بالأمس، ودخل إلى المحل مشهِرًا رزمة من الأوراق المالية الكبيرة، فيسأله صاحب المحل وقد تذكره لغرابة شكله وغرابة سلوكه ..

- صندوق يا باشا ؟
- خمسة ..
- أمرك يا باشا .. خالد، ولد يا خالد.
- أيوه حاضر ..
- حط خمسة صناديق ويسكي في عربية الباشا.

فيشير خالد إلى شاهين ..

- المفتاح يا باشا ..

فناوله شاهين المفتاح دون أن ينطق، وإنما قلب شفتيه باستعلاء أساء الفتى، وأشعره بالمهانة التي جعلته يحمل الصناديق ويسير محني الرأس، حانقًا من الغيظ من هذا السيكوباتي المغرور المعتوه.

عاد شاهين إلى القرية ودخل صامتًا إلى داخل حديقة القصر، ليجد في مواجهته أدهم الذي ينظر إليه نظـرة المتسائل عن أحواله، وكأنه يقول : أين كنت ؟
كل ذلك دون أن ينطـق بكلمـة حتى لا يكـون رد هذا الأخـرق جـارحًا له، أو مفاجئًا غير متوقع كما جـرت عادته.

وقد كان أدهم ذا مكانـة خاصـة لدى شاهين، فقـد كـان الشخص الوحيد الذي يعـامله شاهين باحترام وذلك لعدة أسباب، أولها أن أدهم كـان المسئـول عن كل شـيء في العزبة، فضلًا عن رعـايته لزهـور الحديقـة، وقد كان شاهين مولعًا بالزهـور لدرجة الهوس، فقد كان لا يمـل من النظر إليها بل ومراقبتها لدرجة أنه كان ينظر إليها لساعـات طـوال، محـدقًا النظر، ومتصورًا أنه يشـاهد تطورها، ويخشى أن يفوته لحظة من لحظـات تطـورها وتلونـها، ولأن أدهم كان بـارعًا جـدًا في عملـه، فقـد استطاع أن يجعل حديقة القصر أشبه بلوحة فنية رائعـة تمتـزج فيها الألوان في تناغم بديـع، وكأن تلك الألـوان تشكّـل في تناسقـها مقطـوعة موسيقيـة معدة من أحـد الموسيقيين العظماء.

فوق كل ذلك، فقد كان أدهم صاحب شخصية صارمة، ويتظـاهر بالهـدوء، متـواريًا خلف وجهـه الجـامد الذي لا يبدي أي انفعال.

وكان شخصًا مثقفًا جدًا، واسع الاطلاع، شغوفًا بالقراءة لدرجة أن استراحته التي يقيم فيها، والملحقة بحديقة القصر كانت مكدسة بالكتب المتنوعة والموزعة على الأرفف بتناسق وترتيب، كأنها مكتبة متخصصة، كما كان مولعًا بالإلكترونيات، يقتني منها الحديث والأحدث في وسائل الاتصالات والتصوير وما إلى ذلك، وساعده على ذلك راتبه الكبير الذى كان يتقاضاه من عمله لدى حامد، وكان قليل المطالب لدرجة غريبة جدًا، حتى عندما توفيت والدته استأذن من حامد بكلمات مقتضبة جدًا، دون أن يفتح مجالًا لحامد أن يطلب حضور العزاء، فكان يأبى على نفسه انتظار ذلك من شخص كحامد على الرغم من مكانته المتميزة لديه، فأدهم هو الشخص الوحيد المسموح له بدخول القصر في أي وقت، وكان يشرف بنفسه على تنظيف القصر من الداخل، وترتيب الغرف، وله أن يستعين بمن يشاء من فلاحات القرية تحت رقابته وإشرافه التام، دون تدخل حامد أو ابنه، بل ويشرف على إعداد الطعام لهم، وكان يقوم غالبًا بتحديد مواعيد تقديم الطعام لهم، وربما يقدم الطعام في حضوره، وكان يقوم بكل ذلك بنظام وبأسلوب يشبه الحركة الميكانيكية، وكانت خطواته في المشي منتظمة، تشبه الخطوة العسكرية وبخفة وسرعة في الوقت نفسه، ولا تكاد تسمع وقع أقدامه رغم كونه طويل القامة، عريض الكتفين، لأنه كان مع ذلك نحيفًا، خفيف الجسم، سريع الحركة، يبدو بشعره الخشن

المنسق بعناية شديدة كمن يستعد لحضور اجتماع هام، وكانت هيئته تلك لا تتغير أبدًا.
وقد حضر أدهم بمجرد سماعه صوت السيارة، وكان حسانين البواب يغلق باب الحديقة بعد دخول السيارة واستدار مستعدًا لتلبية طلب شاهين في اللحظة التي انفتح فيها صندوق السيارة فرأى أدهم ما فيها، ولشعوره بخصوصية الموقف فقد نظر لحسانين نظرة صارمة جعلته يتسمر في مكانه مرتبكًا، ثم حمل بنفسه الصناديق من السيارة وأدخلها إلى القصر، ووضعها بسرعة في مطبخ القصر، مع الاحتفاظ بزجاجة واحدة في غرفة شاهين كل ذلك دون أي تعليق، ليكون هذا الموقف عنوانًا للمرحلة الجديدة من علاقتهم، فهو الأب البديل، كاتم الأسرار، والأمين على الخبايا، والمسئول المباشر عن جميع مصالحه.

بدأت حياة شاهين وحيدًا في القصر الضخم، وليس له رفيق إلا زجاجة الخمر التي لا تفارقه، ويقضي الأيام الطويلة لا يرى أحدًا سوى أدهم، الشخص الوحيد الذي يدخل القصر في أوقات يقظته التي تبدأ من استقرار الظلام في الليل حتى سخونة الشمس في الصباح، بالإضافة إلى إدارته لشئون الأرض والعزبة، خاصة بعد أن تم تعيينه حارسًا قضائيًا على أموال القاصر شاهين من محكمة الأمور المستعجلة لحين بلوغ القاصر سن الرشد، فلم يكن شاهين يثق في أحد سواه،

ومن جهة أخرى فقد كان جميـــع الفلاحيــن في العزبـة ينفرون من شاهين لسوء طباعه، ويتحاشـون حتى لقائه فقد كان سليط اللسان، متكبرًا لدرجة لا تحتمل.

وفى الوقت نفســه، قد كان أدهم حصيفًا في إدارة شئـون العزبة، ويقــوم بحـل جميــع المشـاكل بسرعة وحــزم، فسيطــر تمــامًا على جميــع الأمــور، ســاعده في ذلك شخصيته المسيطرة التي جعلته يمســك بكل الخيوط في يـــده.

حــدث ذات مـــرة أن توجــه أحـــد الفلاحيــن، ويدعـى عبــد المنعــم الصاوي إلى شاهين ليطلــب منـــه تجهيـز مخــزن جديد للبطــاطس بعد أن زاد محصولها في ذلك العام عن الأعــوام الســابقــة، وكــان عبد المنعم رجلًا كبيرًا في السن، له مكانة متميزة بين أهل القرية، نظـرًا لسنه ولما يفعله دائمًا من التطوع للخير والإصلاح بين الناس، ورغم ذلك فحيـن عرف شاهين بأنه يطلب لقاءَه قال لأدهم:

- عايز إيه ده .. عايز يدخل هنا ؟!!
- عايز سعادتك في موضوع، عايزين يعملوا مخزن في وسط الأرض.

فقام شاهين بسرعــة، ووقف في شرفـة القصر مخاطبًا عبد المنعم الذي كان واقفًا بحديقة القصر ينتظر الإذن بالدخول إلى القصر ..

- عايز إيه يا راجل أنت ..
- يا سعادة البيه، المخازن مش واخدة البطاطس.
- يعنــى أبــوظ الأرض وأبوّرها علشـــان أخـــزن المحصول – ضاحكًا – قالوا لك عليا صعيدي، ولا يمكن فلاح عبيط زيك !
- كده .. الله يسترك يا بيه.
- امشي يا راجل أنت بلاش هبل.
- آسف يا بيه .. وعمومًا معادتش تتكرر.

ويستدير الرجل عائدًا وهو مطاطئ الرأس مذهولًا مما حدث، فقد سمع كثيـرًا عن صفاقة شاهين وسوء خلقـه، ولكنه لم يتصور أن يكون لهذه الدرجة.

شاعت قصـة الحاج عبد المنعم بين الأهالى، وتعاطفوا معه ومما ساعد على انتشارها أن أدهم أمر ببناء ثلاجة ضخمة لتخزين المحصـول، واستعان في بنائها بكثيــر من أبنـاء القريــة، وكان لهذا الأمر بالـغ الأثـــر ليؤكـد للجميــع أن أدهم هو الآمـــر النـاهـي بعد وفاة كبيرهم حامد الزعفراني.

انتشرت القصة على كل لسان، فقصة عبد المنعم كانت هي قصـــة كل يـوم وحديث القريــة، وزادوا عليــها من خيالاتهم الكثيـر والكثيـر، وكلما مـروا بالبنــاء الجديـــد ذكروا القصـــة التي أكـدت سيطـــرة أدهم على مقاليـــد الأمور وعلى شاهين نفسه، وأكـدت الواقـع الجديـد، أن

أدهم هو الحـاكم الفعلي للقرية، ولا يوجـد لأحد سلطان عليه، وأن فكرة اللجـــوء إلى شاهيـن باعتباره صاحب المال فكــرة عديمـة الجـدوى، ولن يحاول أحدٌ من أهـل القريــة أن يشكــو أدهم لشاهيـن بعد موقف عبد المنعم، بل ابتعدوا عن شاهين تمامًا وتجنبوه.

استمرت حيــاة شاهين على هذا المنوال، لا يختلط بأهل القريـة، ويقضي يومه نائمًا في القصر، ولا يصحــو إلا بعد حلول الظـلام، فإذا قام لا يبرح القصـــر إلا مستقـلًا سيارتـه إلى القاهــرة، ساهــرًا في أحـد الملاهي الليليـة، ولا يعــود قبل السـاعـات الأولى من النهــار، أو يقضي الليل داخـل القصــر، يحتسي الخمــر والمخــدرات أمام الإنترنت ومواقعه المشبوهة، دون رفيق أو جليس.

كان لا يدخل عليه القصر سوى أدهم بمفرده أو بصحبة من يستــأجره من الشبــاب لأعمـال التنظيف والطهـــو وخلافه التي كانت تتم في فترة نومه التي تمتد طوال النهار، حيث لا تجرؤ أي سيدة على دخول القصر حتى أثناء النهار، خشية القيل والقال في قرية صغيرة كتلك القرية، بعد أن أصبــح يسكنــه شــاب أعــزب، وحيــد، سيء السلوك والسمعة.

استمرت الحياة على هذا النحــو لمدة تزيــد عن ثلاثــة سنـوات، لم يختلــط فيها شاهين بأحــد سوى أدهم الذي كان لا يفارق القصــر إلا لوقـت قصيـر لقضــاء مصالح

القرية، وكان لا يفارق القرية نفسها إلا لمدة يومين كل شهر مستقلًا سيارته الخاصة، ليزور أسرته المقيمة في كفر الشيخ التي تبعد مسيرة ساعة تقريبًا عن القرية، حتى جاء يوم أخبروه أن زوجته تعاني آلام الوضع، وقد نقلوها إلى المستشفى، فاستقل سيارته مسرعًا مضطربًا لدرجة أنه لم يخبر أحدًا عن وجهته، وقد تملكه شعور غريب من القلق حين تذكّر ما عانته حبيبته في ولادة طفلهما الأول سمير، واستقرت صورة حبيبته أمامه كأنها مثبتة على زجاج السيارة، تنظر إليه وتبتسم، تلك الابتسامة التي اعتادها وطالما احتاجها مدادًا لروحه ومصدرًا للقوة التي تعينه على مواجهة التحديات والاضطرابات، فلا تضيق به الدنيا حتى تنيرها له كلمات محبوبته الصابرة، وحين يراها بوجهها المستدير الذي تتوسطه الغمازتان اللتان عشقهما، ولمستها الحانية وكأنها يد طفل رضيع تمسح عنه همومه وتنزل عنه أثقاله .. لماذا يفكر في كل هذا ؟!

إن الخواطر تكاد تعمي عينيه عن الطريق حتى وصل إلى كفر الشيخ وهو يكاد لا يرى الطريق أمامه، حتى اكتشف ما أخفوه عنه .. إن الجنين مات في بطنها.

أما شاهين فقد استيقظ عند غروب الشمس كعادته، ولم يجد أدهم في القصر، فظن أنه انصرف لقضاء أحد مصالح القرية، رغم أن ذلك نادرًا ما يحدث في هذا

الوقت المتأخـر، وانتظـر عودته ولكـن دون جـدوى، واستمر غياب أدهم عن القصر لمدة أربعة أيام.

وفى اليوم الخامس استيقظ شاهين في موعده فوجد أدهم ولكنه فوجئ بوجود طفل في حديقة القصر ...

- أدهم .. كنت فين .. ومين ده ؟!
- مراتي تعيش أنت، فأنا سافرت البلد دفنتها وخدت العزا ورتبت أمـوري وجبـت معايا ابني سمير، ها يقعد معايا بعد إذنك .. مالوش حد بعد وفاة أمه.

وبالفعل أقام الولد مع أبيه بالاستراحة الملحقة بالقصـر، وكان مثل أبيه من النوع الهادئ لا يُسمع له صـوت.

كان الطفل جميلًا ورث عن أمه لون البشرة مع العيون العسلية الواسعة، بالإضافة إلى الشعر الذهبي الناعم، وقد أثار جمال الطفل دهشة شاهين وغيرته ..

- هذا الفلاح ابن الفلاحة يكون جميلًا كالأوروبيين، وأنا ابن الإيطاليـة ورثـت عن أبي كل شـيء حتى ارتخـاء الجفون، بل زدت عليـه بارتخـاء الجفنيـن وورثت بشرته وشعره الخشـن.

وبالفعل، فإن شاهين كان نسخة من والده، ولم يرث عن والدته إلا وجهها المستطيل.

استمــرت حيـاة أدهم الذي انشـق قلبه من الحـزن، فلم يتوقف عن النزيــف يومًا، من الألم والعذاب على فراق حبيبته، وكثيرًا ما حدّث نفسه:

- حبيبتي وفاء، كم أشتاق إليكِ، وكم أشتاق إلى أدهم الذي عرفته معكِ، والذي كنته بين يديكِ!

وإذا خلد إلى فراشـــه يستمــع إلى أنفاســه، وكأنها ترثي محبوبتـه، وأن جفـونه تصــارع الدمـوع التي تلح عليـها في الانفجار، ويظل على حالته تلك لا يخرجــه منـها إلا النظـر إلى ذلك المــلاك الجميــــل الذي رزقـه الله بـه، وجعله يلتقـط من أمه الحبيبة ملامحًا في الوجه والطباع حتى أنه قد اكتسب منها بعـض اللفتــات والحركـــات، وتبدو ابتســـامته تشبهها كثيــرًا أو هكـــذا خُيــل إليه، فيحتضنه بحنان بالغ محدثًا نفســـه:

- والله يا بني ما أنا عــارف أنا اللي بأعوضــك عن أمك ولّا أنت اللي بتواسيني!

وتتلاحق الخواطر في رأسه من خواطر ينزف لها قلبه وأخرى يثبت بها نفسه ليقوى على أداء دوره، فيكون سندًا لهذا الكنز الذي رزقه الله به ومتعه برؤيته، ليكون الشذى المنبعـث من هذا الجسـد الطاهر البريء وأنفاسه الدافئة بمثابـة معزوفــة حــانية يهدأ لها اضطراب قلبه الذي تعتصره الأحزان ويطرب لها وجـدانه المشقـوق،

فما إن يفوز بتلك الكف الصغيرة الناعمة كخد الجنيـن، الدافئة كحضــن الأم، حتى تستقــر نفسـه وتهدأ أنفاسـه وتستسلم أجفـانه المنيعـة، فيسترخي جسـده وتعـرف عيونه طريق النعاس.

استيقظت القرية ذات يوم على معركة ضخمـة داخل أحد الغيطان[1] بين فريـق من الفلاحيـن يضـم إبراهيم اللقاني، شقيق عوض جنايني القصر، وفريق آخر يضم عمر بن حسانين البواب، تطايرت فيها العصي وتبعتها بعض المناجل[2]، وسال على أثرها كثير من الدماء.

لتلك المعركـة أسبـــاب كثيـرة، من الخلافـــات حـول الاعتـــداء المتبادل على مساقي الأرض المشتركـــة، بالإضــافة إلى ما حـدث في اليـوم الســابق بينما كــان عوض الجنايني يعد الشــاي ليشربـه بصحبـة صديقـه عبد العزيز، ويتهامســان ضاحكيـن حتى قـدم حسانين البواب لينضم إليهم.

قال عوض ضاحكًا:

- تصـدج يا عم حسانيـن الواد عبعزيـز بيجـول إن الراجـل لازم يتجـوز تـلات نسـوان .. أنـت إيه

---

[1] تعريف للأرض الزراعية، شائع في الريف.
[2] أداة لقطع البرسيم والحشائش، مقوسة على شكل نصف دائرة، ومشرشرة النصل من الداخل، وحادة جدًا.

رأيك؟ ولّا أنا بأقول لك ليه يا عم .. أنت ليك فيه، ده مراتك هي اللي عايزة تتجوز عليك.

فانفجر ضاحكًا، وأيده صديقه، بينما احمرّ وجه عم حسانين، وعقب قائلًا:

- تصدج إنك جليل الحيا .. لما تتمسخر على واحد جد أبوك، ما هو لو أمك نبوية عرفت تربيك بدل ما هي دايرة تخبز في كل دار يوم، وتخبص[٣] في كل حتة بكلمة، كنت بجيت راجل.
- بتجيب سيرة أمي يا شايب، ياللي مراتك فاضحاك عند كل دار شوية.
- أنا اللي راجل ناقص إني بأقعد مع عيل منسون زيك .. اتفوووو.

همّ عوض ليضرب عم حسانين، لولا تدخل عبد العزيز الذي حمل صديقه صغير الحجم ورفعه عن الأرض واندفع به خارج أسوار القصر وهو ينهال بأبشع الشتائم على خصمه العجوز الذي بادله الألفاظ النابية على مرأى ومسمع من الجميع، ولم ينتهِ الموقف إلا بتدخل أدهم الذي يوقره الجميع، وتوقفوا عن التشاحن بمجرد ظهوره.

[٣] كناية عن الفتنة ونقل الأخبار.

وفي المساء اجتمع أهل القرية في دار المناسبــات لعقد جلسة صلح بزعامة أدهم، وحضور الطرفين ولم يتأخر عنها البواب والجنايني بطبيعة الحال فالموضوع تشعب بين واقعة القصر وواقعة الغيط.

استيقظ شاهين في تلك الليلة من نومه في موعده المعتاد وكان الليل قد فات منه وقت غير قليل، وبعــد أن تناول طعامه بدأ في ممارســة هوايته المفضلة، فتجرع الكأس تلو الأخرى، وكان شرِهًا في تلك الليلة بصورة غريبة، فشرب زجاجة كاملة في مدة أقل من ســاعة، وقـام من غرفته إلى المطبـخ ليحضـر زجاجة أخرى، ودخل إلى المطبـخ وبحـث، فلم يجـد أي زجاجة من الخمــر، فقام بتغييــر ملابســه وخــرج حتى البـاب الداخلي للقصــر، وبمجرد خروجه منه رأى الطفل سمير يقف داخـل أحد أحــواض الزهــور التي بنــاها أدهم في شرفـة القصــر لتحيط به من كل جانب، ويا للهول فقد كان الطفـل يقف فوق الورد ويقطــف منه، منحنــيًا بينما تحــرك سرواله بمقدار ضئيل كشف عن جزء صغيـر من مكان حساس في جسـده الطفولي، وكانت فكــرة رؤيــة شاهين لـه في هذا المنظر بالنسبة للطفل فكرة مرعبة لأن شاهين كان مهووسًا بالورد لأقصى درجـــة، فأفزعه بأن صـــرخ بأعلى صوتــه:

- سميـــــر ...

ففزع الولد، وقفز من حوض الزرع بقفزة واحدة هـربًا إلى حديقـة القصـر، لكـن شاهين نزل من سلم القصـر بأقصى سرعـة، وتجاوزه بقفزتين وجرى وراء الطفل حتى أدركه وأمسك به، وكان الطفل يمسك بيده سرواله الذي سقط عنه أثناء القفـز، ونظـرات الفـزع الرهيب تبدو عليـه من بطش ذلك الوحـش الدميم الذي يعرف هوسـه بالورود، ولم يتسـع خياله البريء لما يمكـن أن يذهب إليه ذلك العقل الذي أفسـده الخمر وأتلف خلاياه إدمان عقاقير الهلوسة كالريفو ترين والترامادول، لكـن الطفل سيطـر عليـه شعور الحمَل الذي يقع بين براثن ذئب جائع، فنظرات الجوع التي تنطلق من عيـون ذلك المسخ القـذر ليس لها تفسيـر في ذلك العقـل البـريء إلا إنه سيلتهمـه بلا تـردد كحيـوان مفتـرس، فبدأ في الصـراخ إلا أن عاجلته يد شاهين الضخمة على فمـه، والطفل يقاوم بكل قوته ويحاول الفكاك من تلك القبضـة الجهنمية التي غطت فمه وأنفه يغلقهما حتى لا يئن بأنفه فيلفت الأنظـار، بينما الوحش يلتفت يمينًا ويسارًا باحثًا عمّن يمكن أن يراه في المكان، فإذا ما تأكد حتى امتدت يده الأخرى تحاول نزع السروال عن الجسـد الطـاهـر الذي بدأ ينتفض انتفاضته الأخيـرة تحت تلك القبضـة التي كتمـت أنفاسـه دون أدنى شعـور سوى أفكـاره القذرة، فلمّا سكن الجسد الملائكي رفع المعتـوه عنه يده ظنًا أنه استسلم، لكن الصغير سقط على الأرض بغيـر

حراك، فارتبك الذئب وأسرع يعيد سروال الطفل إلى مكانه، وهو يتمتم:

- الواد ده ماله .. يااادي المصيبة !!

فزع شاهين وجحظت عيناه من هول الموقف، لقد مات الولد .. ماذا يفعل ؟! وماذا سيفعل والده ؟! انه لم يخشَ أحدًا في حياته قدر خشيته وخوفه من أدهم .. نعم، كان يخاف دائمًا من أدهم، يخاف من نظراته، يخاف من غموضه، لأنه دائمًا كان يشعره أنه أقوى منه بهذا الصمت وهذا الغموض، فلم يجد أمامه حلًا سوى أن يحمل الولد الصغير على يديه، ويضعه في صندوق السيارة، ويخرج مسرعًا من بوابة القصر، وطار بسيارته مسرعًا مغادرًا القرية والأفكار تدور في رأسه مضطربة، وقال محدثًا نفسه:

- طبعًا ما ينفعش كنت أحطه في العربية على الكنبة أحسن حد يشوفه، وأنا مش عارف الحكاية ها ترسى على إيه، طب أنا هاوديه المستشفى، طيب لما يسألونى في المستشفى إيه اللي حصل ؟! لا، لا .. أنا ها أروح في داهية.

وظل على حالته يسير على غير هدى حتى تفتق ذهنه أن يسير بسيارته إلى الطريق الصحراوي ويترك الجثة هناك، بعد أن يدفنها في الرمال ويعود إلى والده، وكأنه

لا يعلم شيـئًا عن اختفــاء الولــد، والفعــل نفذ خطتــه الوحشيــة، وعاد إلى القصـر قبل طلـوع الفجـــر - قبل موعد عودته المعتاد بساعتين على الأقل.

دخـل إلى القصر مرعوبًا من فكرة مواجهته لأدهم، تلك المواجهــة التي ارتعــدت لها فرائصـــه، والتي بذل كل ما في وسعه للهروب منها، ولكم كانت سعادته حين لم يجــد أدهم في انتظــاره عند عودتــه، فتنفس الصعــداء وســارع الخطى إلى غرفته ليغلقها عليه مدعيًا النـــوم، وبعد ساعتيــن دق باب الغرفـــة، ليأتيه صوت أدهم من وراء الباب:

- شاهين بيه .. شاهين بيه، لو سمحت ..

شاهين لا يـــرد، رغم أنه مستيقظ في سريره، وتمــر دقائــق طويلة عليـــه تمنى فيها أن ييـأس أدهم من عدم الرد وينصرف، لكن هيهات فقد ظـل صابرًا ومتحملًا، ويواصل الطرق على الباب.

- شاهين بيه ..
- أيوه ..
- من فضلك افتح، عايز أقول لك على حاجة.

يفتح الباب وهو يفرك عينيه متصنعًا النوم ..

- خير ؟!

- الواد سمير ..
- ماله ؟
- مش موجود، حضرتك ما شفتوش ؟
- أشوفه فين، ها يكون عندي يعنى ؟! روح يا راجل دور على ابنك.
- يا بيه أنا خرجت امبارح، وأنت كنت نايم، وهو كان في الشقة تحت بيتفرج على التليفزيون.
- أنا صحيت ما لقيتكش لا أنت ولا هو.
- طب يا بيه آسف .. عن إذنك.

ويخرج أدهم مغلقًا الباب خلفه، وهو يتساءل:

- أين ذهب الولد ؟!
اتخطف ؟ يمكن هرب .. طب ليه ؟!
هرب مع مين ؟! معقولة دي ؟!!

وبقي أدهم يضـــرب أخمـاسًا في أسداس، ويقلب الأمـــر على جميع الوجوه، لا يجد تفسيرًا.

أما شاهين، فقد شعر بارتياح أخيــرًا بعد ليلته العصيبة، وحاول النوم لكن هيهات أن يعرف النوم طريق عينيه، وهو في كل هذا الرعــب ممن ينتظــره بالخارج، وظل يتقلب في سريـره على هذا النحو ساعات طويلة، يسعى إلى النوم ويتوسـل إلى عينيــه أن تغمضا لكنها تأبى أن تطيعه وتستسلم للخوف، الخوف من عقاب أدهم.

وبعد ساعــات، بعد أن فشلت جميع محــاولاته، خرج من غرفته، خرج وعيناه تبحث عن أدهم، ويتمنى من أعماقه ألا يلقاه، وبالفعل انفرجت أساريره حين لم يجد أدهم في القصر حتى أنه غادر القصر سريعًا خوفًا من عودته، غادر القصــر حتى دون أن يتنــاول أي طعــام وركـب سيـــارته متوجهًا إلى دمنهــور التي تبعــد عن قريتهم مســافة ساعة تقريبًا ليتناول إفطـــاره المبكــــر وجلس على أحد المقاهي، وكان جهاز التلفـاز يذيع أحد الأفــلام الأمريكيـة المرعبة، وقد شد الفيلم انتبــاهه ولم ينفك عنه حتى انتهى بعد ثلاث ساعات كاملة، ودار في مخيلته لو أن أدهم اكتشف ما حدث ..

- يكتشفه إزاي ؟!! .. مستحيــل !

لم يستطع شاهين مقاومة رغبته في النوم رغم خوفه، كما لم يستطــع أن يقـاوم فضوله لمعرفة ما يحـدث عن قرب، فعــاد أدراجــه إلى القصر وكان الليل قد قـــارب على الدخول، حيث يخيم الليل مبكرًا في مثل هذا الوقت من شهــر أبريل، وما إن دخــل غرفته حتى وجـــد في انتظـاره مفــاجأة يشيـب لها الولـدان وتنخلـع لها قلــوب الرجال .. شبح، نعم .. شبح الطفل سمير داخل الغرفة ينظر إليه، وهو يبتسم .. يا للهول !

فاندفــع شاهين مذعــورًا يجــري كمن أصـــابه المـس، لا يــدري كم مضى من الوقــت وهو يجـري بأقصـــى

سرعـة، متوجهًا إلى سيـارته التي انطلـق بها مصـدرًا صوتًا عاليًا تردد صـداه في أرجـاء المكـان، مدويًا في هذا الوقـت المتـأخر من الليل، وطار بسيـارته مغادرًا القريـة، ومنها إلى الطريق الصحراوي حيث دفن جثـة الطفل، ليتأكد من وجود الجثة، وكانت الأفكار تدور في رأسه ..

- معقـولة الواد ما ماتش، واللي حصـل ده كله كان حلم ؟ ولا مات وده عفريته ؟!
يا نهـار أسـود .. عفريت، ها يطاردنى لحـد ما يخنقني ويخلص عليا.

وظلت الأفكـار تراوده، لا يعرف مصيرًا حتى وصـل إلى مكان الجثة، وبدأ الحفر، فلم تظهر الجثة.

- راحت فين ؟!! يمكن تحت شوية ..

يواصل الحفر ..

- يمكن الحكاية كلها حلم .. راحت فين ؟!

الحفر يتواصل، حتى شعر ببعض البلل تحت قدمه ..

- رباه ما هذا ؟!

الجثة تحت قدميه، نعم .. فقد وضع بعض المياه على التراب ليساعده على تسوية التربة، ولتهبط فوق الجثة،

وقد أخطأ المكان من شدة اضطرابه، ربما لرغبة دفينة داخله لتكذيب الأمر كله.

لم يشعـر بالشفقـة على الطفل، ولم يهتز له جفن تحت سلطان المشــاعر الإنسانيــة، إنما هو خوفه وذعره من انتقــام الأب أدهم، ولكــن ما دامـت الجثـــة مكانها، إذا ما هذا الذي رآه ؟!

المؤكـد أنه خيـاله المضطـرب .. نعم، خياله والأشباح التي تطارده منذ الطفولة، خاصة أن عينيه لم ترَ النوم منذ الليلة السابقة.

- أكيد أنا محتاج أنام .. طيب أغير الأوضة، القصر فيه أوض كتير .. أيوه ها أغير الأوضة.

عاد إلى القصر متوجهًا إلى غرفة نوم أخرى من غرف القصــر الاثنى عشرة، وبالفعل دخــل الغرفـة وأضــاء نورها، ويا للهـول لما رأى .. إنه الشبــح، إنه يطارده، نفس النظـرة الباردة التي خلعت قلبه، وأشعلـت نيـران الرعـب في جســده، فأطلق ساقيـه للريح، وقفز داخـــل السيارة، ويـده المرتعشة لا تقـوى على إدخــال مفتــاح السيارة في موضعه.

وبعد جهد واضح استطاع السيطرة على المفتاح، وأدار المحرك، لكنه لا يستطيع التحكم في عجلة القيـادة بيديـه الغارقتيـن في العـرق الذي غطى جسـده، وبدأ يتســاقط

على عينيه، فتمتد يده لتمسح العرق عن جبينه، كل ذلك والسيارة تنطلق بسرعــة جنونيـة، والأفكـار تترنــح في رأسـه كأشباح تتراقص أمام عينيه، فلم يعد يقــوى على التركيــز، بل إنه فقـد قـدرتــه على التمييــز من هــول ما رأى .. ما هذه الأشباح ؟!

فطالما تخيل العفاريت والأشباح قبل ذلك، لكن لم يصل خياله إلى رؤيتها رؤي العين.

- ده مش عفريــت واحــد، لا .. كمان دي عفاريــت علشاني أنا، ها تموتني، ها تموتني.

كــل تلك الأفكــار تطــرق رأســه طــرقًا، وهو ينطلــق بسيارته إلى أبعد نقطة، بعيدًا عن العفاريت والأشباح.

انطلق حتى وصل إلى القاهرة، وهناك توقف بسيارته أمام أحد الفنادق الفاخرة، وولج إلى الداخل، وهو يمشي كالمنوم مغناطيسيًا إلى حيث موظف الاستقبـال بالفندق، وما إن وصــل إليه حتى رمقـه الأخيــر بنظرة ازدراء، وبدا عليه الامتعــاض الواضــح، فقد كان شاهين بحالة يرثى لها، ملابسه متسخة، وشعره أشعث، لا يقل قذارة عن ملابسه، وعن الرائحة البشعة التي تسبق خطواته.

- لو سمحت، عايز أوضة.
- لمين ؟ .. ليك ؟!!

فانتبه شاهين لمظهره الرهيب، وأخرج من جيبه بطاقة صرف آلي، وناولها للموظف ..

- احجز لي أحسن سويت - جناح خاص – عندكم.
- لا مؤاخذة يا فندم، بس اسمح لى .. سعادتك زي ما تكـــون حصـــل لك حاجـــة، تحـــب نطلـــب لك المستشفى أو حاجة زي كده ؟
- لا يا فندم – ساخرًا - ممكن تطلب لي محل هدوم كويس يجيب لي حاجه تنفع، وأنا ها أطلع السويت بتاعي، وتبعت لي الهدوم عليه ؟
- سعادتك ما معاكش شنط ..
- لا، ما فيش .. السويت منين ؟

أنا محتاج أرتاح بسرعة، وخلّي حد يدخل العربية بتاعتي الجراج بتاعكم.

- هو سعادتك قاعد معانا كام يوم ؟
- تفرق معاك في إيه ؟!
- النظام كده يا فندم ..
- طيب يا سيدي، ها أدفع لك شهر مقدم، في حاجة ثانية ؟!
- لا ، بطاقة سيادتك علشان البيانات.

فناوله البطاقة وهو متململ بوضوح، سائلًا:

- خلاص كده ؟!

- أيوه يا فندم، امضي لي هنا من فضلك، واتفضل مع العـامل ها يوصـلك السويت، بس بعد إذنـك ها أخلّي الكريديت كارد معايا في الاستقبـال لحـد ما تيجي الملابس اللي حضرتك طلبتها، وأحاسبهم عليـها، وها أبعتها لسعـادتك، مع الفواتيـر على السويت.
- ها أستناها ..
- تحت أمرك.

وبالفعـل كانت إقامتـه في ذلك الفنـدق بمثابة الملجأ الآمن، فقد وجـد فيـه حلًا لجميع مشاكله، إقامة مريحـة، بعيدًا عن الأشباح، الأشباح التي تركها بالقصـر ولكنها لم تتركه، فكانت تزوره في أحلامه لينهض من النـوم مذعـورًا فيتسعين عليـها بما تعـرف عليـه من أنـواع العقاقيـر المخـدرة، إضافة إلى الخمـر الذي توطـدت علاقته به في هذا الفندق، حيث كان الدور الأرضي به يحتوي على بار رائع، تذوق فيه أجود أنواع الخمور، بالإضافة إلى صـالة للقمار .. إنها بالفعل تسلية مثيـرة، فكان يهرب من مخاوفه باللعب، فيقضي وقتًا طويلًا كل ليلة وهو يلعب القمار حتى الساعات الأولى من الصباح ولا يتوقف عن ابتلاع أكبر كمية من الخمر والمخدرات حتى يستطيع النوم.

ظـل شاهين على هذه الحـــالة، يقضـي نهـــاره نائــمًا، ويقضـي ليلـه في صـالة القمــار، يحتسي الخمـــر حتى اكتشف ذات ليلة أن الرصيد قد انتهى، فقد سحب مبالغ طائلة خلال الفترة التي قضاها في ذلك الفندق.

الغريب أن شاهين لم يكن كثير التنقل، حتى أنه طوال مـدة إقـامته بالفنـدق - والتي تجــاوزت الشهـريــن - لم يغادر الفندق إلا لمرات قليلة جدًا وعلى فترات متباعدة.

فاصطدم شاهين بهذا الموقف الذي لم يتعرض له طوال حياته، بل إنه لم يخطر له ببال قبل ذلك، ماذا يفعل ؟!

لقد أنفـق مبـــالغ طــائلة في المدة التي قضـاها بالفنـدق، وخسر بأرقام فادحة في القمار اللعين ..

- ما العمل ؟ أتصل بأدهم ؟!

اتصل بالمحمول الخاص بأدهم، الهـــاتف يرن ولا أحــد يجيب، الغريب أن أدهم لم يحاول الاتصال به طوال الفترة السابقة، ليس هناك غريب على هذا الأدهم، فقــد اعتـــاد أدهم دائــمًا ألا يزعـــج شاهين باتصــاله خــلال رحلات شاهين الليلية التي اعتــاد عليها قبل تلك الرحلة الأخيــرة، لكن الوضـــع مختلف هذه المرة، فقد استمــر الغياب أكثر من شهرين.

ظلت الأفكـــار تراوده، والهاتـف يواصل الاتصال دون جدوى، ماذا يفعل ؟!

- لازم أرجع العزبة أعرف إيه اللي حصل، أدهم راح فين ؟ إيه اللي حصل في القصر ؟!

بالفعل عاد إلى العزبة، وحين اقترب من القصـــر شعـر ببرودة تسري في جسده ..

- أنت لسه خايف ؟! عفاريت إيه ؟!
بس بلاش هبل .. أمال إيه اللي شفته ده ؟!
معقول في سنك ده وجسمك ده مرعوب من عيل عنده سبع سنين، لأ وشبحه .. مش هو !
الله يخرب بيت البلاوي اللي لحست دماغك.

وحيـن دخـل من بوابـة القصـر وجـد كل شيء طبيعيًا، ما هذا ؟! القصر مظلم تمامًا.

فتــح البـــاب الداخلي، وامتدت يده المرتعشــــة لتضيء أنوار البهو الرئيسي للقصر، فانطلقت الإضاءة قبل أن تلامس يده المفتاح .. ما هذا ؟!

ما زالت الأوهام تعذبه، فدخل متوجسًا حتى وصل إلى المرآة الموضوعة في بهو القصـــر، ويا لها من كارثة، من هذا الذي ينظر في المرآة ؟!

إنه والده .. حامد الزعفراني، ينظر في المرآة فيجـد والده، فيتراجع للخلف وهو يصـــرخ مفزوعًا، ويستدير ليرى ما أفقـده صوابه بل وأطـــار عقله تمامًا، من هذا

الذي يقف أمـــامه في بهـو القصـر قادمًا من القاعـــة الجانبية .. من هذا ؟!

إنه هو .. نعم هو .. شاهين نفسه !

المفاجأة أخرست صوته، لم يستطِع النطـق، ولم يـزد على أن تسمـر في موضعــه كتمثال حجــري بعينيــن مفتوحتين، إلا أن أطرافه تهتز كمن مسّه تيار الكهرباء، ومفــاصله تصطك، يكاد يسمع صوتها دون أن يملـــك لإنقـــاذها شيـئًا، وأنفـــاسه لا يستطيع السيطرة عليها، فتتسارع وتتسارع دون توقف، وهو ممدد على الأرض متصل بجهــاز رسم القلب الكهربـــائي، والشبيه يضغط على صدره بقوة ضغطات متتابعة بجهاز تنشيــط القلب تطول أحدهما بعد الأخرى، ليقوم الجهـــاز عن طريــق الصــدمات الكهربـائيـة بتعطيل دقات القلب، ولم يتوقف إلا بعد إصدار جهاز رسم القلب إشارة النهاية، بعـد أن أرداه قتيلًا، بالسكتة القلبية.

ثم حـــدث نفســه:

- أخيرًا يا أدهم كملت مهمتك، من دلوقت تقدر تعيط وتتوجــع على ابنك اللي راح، اللي قتله الحيــوان ده، دلوقت أدهم ما بقالوش وجود.
أدهم كان موجود بس علشان سمير يفضل له أب، دلوقت سمير مش موجـــود، والموجود أب حياتــه

ما لهاش معنى ولا مستقبـــل، وكان في شخـــص تاني ما لوش قيمة .. عبارة عن دمية فارغة.
أبوه رباه علشان يكون جسد بلا روح أو مشاعر، هو في الحقيقة ما رباهوش، إنما كان بيستمتـع بيه لنفسه ولنرجسيته، فكان هذا المسخ.
إزاي يقتل طفل بريء .. إزاي عذبني وأنا مش عارف طريقه ؟!

تذكر أدهم خطته الجهنمية .. فقد دارت شكوكه عند اختفاء ابنه حول شاهين، وأراد أن يتأكد ويعرف مصير ابنه، فوضع جهازًا إليكترونيًا متطورًا على زجاج نافذة الغرف وخزن عليه صورة الطفل سمير حتى إذا دخل شاهين أي غرفـة وأضـاء نورها تظهـر الصـــورة له وكأنها مجسمة داخل الغرفـــة، عبر الزجاج المستـورد الذي جلبه حامد خاصة للقصـر من نوع خـاص يسمح بالرؤية من الداخـل فقـط، كما يسمـح بدخول الشمس.

كان الزجـاج يبدو من الخـارج باللون الفضي، ليتنـاسق مع اللون الفضي للمبنى الذي صمم على شكل اسطوانة كاملة الاستدارة، كما وضع كاميرا صغيرة على المرآة الجانبية للسيارة الخاصة بشاهين، على كل مرآة واحدة لتسجـل تحركه بعد أن يشاهد صورة الطفل على زجاج الغرفـة، وشاهين نفذ المطلـــوب منه حرفيًا، فمجـــرد انزعاجه لرؤية الطفل أكد عليه التهمة.

ثم تابعته الكاميـــرا لتحدد مكان دفنه للطفل، ثم هـــرب شاهين كالفأر المذعور لمـدة كانت كافية لإتمـام الخطة بدقة، فسافر أدهم إلى الصين لإجـراء جراحـة تجميل دقيقة جعلته نسخة متطابقة تمامًا مع شاهين **!**

ســاعده على ذلك أنه كـان ضخـم الجثــة كشبيـهـه، الاختلاف الوحيد أن شاهين الحقيقي كان سمينًا بدرجة ملحوظة، فاتّبع أدهم نظامًا غذائيًا خاصًا أوصله للشكل المطـابق تمـامًا، كما أجرى جراحة لحنجرتــه جعلتــه يتقمص صوت شاهين تمامًا، ليحل محله في كل شيء، ويحكـم على أدهم بالفنـاء من الدنيا بعد وفاة من كــان يعيش لأجله - ابنه سميـــر.

حانت ساعة الصفر باتصـال شاهين به، فقد كان أدهم بصورته الجديدة يقيم في شقة مجاورة للفندق الذي يقيم فيه شاهين، ويستعمل سيارة تطابق نفس سيارة شاهين تمامًا، حتى أنه ركب عليها لوحات معدنية بذات الرقم، ليتسنى له أن يعود للقصر كل يوم وكأنه شاهين، فيدخل في الصبـاح ليبيت في القصــر، حتى لا يلاحظ أحد من أهل العزبــة غيـاب شاهين، وسـاعده على ذلك طبـــاع شاهين الذي يقضي نهاره نائمًا ولا يغير تلك العادة أبدًا.

بمجرد أن رأى الاتصال على الهاتف، توجه إلى جراج الفندق حيث تبيــت سيـارة شاهين، ولم يلفت وجوده أي

انتباه، فمن سيندهش إذا رأى صاحب سيارة يتوجه إلى سيارته ؟!

كل ما كان عليــه أن يغــافل حــارس الجـراج، ثم يفتــح صنــدوق السيارة بالمفتاح الذي اصطنعه من قبـــل لهذا الغرض ويختبئ داخله، حتى يصل إلى القصر دون أن يشــاهده أحـد من أهل القريــة فيكتشـــف وجــود اثنيـــن شاهين، وما عليه الآن سوى إزالة الصـــورة المجسمـة التي وضعها من قبل موضع المـــرآة في بهو القصـــر تمهيدًا لإخــافة شاهين حيــن يــرى والـده في المـــرآة، وحمــل الجثــة داخل الحقيبــة التي أعــدها خاصة لهـذا الغرض، بعد أن قام بطلاء الوجه بمادة مستخرجــه من أملاح التربة تساعد على تحلل الجثـة، وانطلـق حيـث يمكن استخـــراج شهــادة وفــاة باسم أدهم المتوفى وفاة طبيعيــة، فيــراقب الجثة بالكاميرا التي أعدت لملاحظة تحلل الجثـــة، والمبرمجـــة بحيــث ترسل تقريرًا يوميًا بالبريد الإليكتروني عن اللقطـــات التي يتم تصويـــرها بصورة منتظمة كل ساعة، حتى إذا ما اختفت معالمها، حان وقت إعــلان الخبر، بعد أن فقد أي سبب للإبقـــاء على أدهم في الوجود.





الكاتب في سطور



- حازم مختار خليفة.
- محامي مصري.
- من أبناء مدينة دسوق، محافظة كفر الشيخ.
- تتميز كتاباته بالتعرض للأمراض الاجتماعية.
- تعد روايته جريمة أب أول إصداراته.



من إصدارات مؤسسة زحمة كتاب

الشعر والخاطرة :

- لابس وش : علاء أحمد
- فعشقت مجددًا : أحمد لملوم
- امرؤ الهلس : إسماعيل علي
- إنسان فالصو : محمد الشحات
- فأنت تفاح أخضر : عبد الرحمن حميدة
- ضل ونور : لمياء عامر
- تراتيل عاشقة : شاهندة الزيات
- ثورة عاشق لم تكتمل : محمد أبو ذكري
- وجع الحنين : هيام الجمل
- أبجدية حب : كواعب البراهمي
- لك الحب : إيمان زايط
- حب في زمن حزين : السيد حسان
- فراغ عاطفي : على نمر
- ضل ونور : لمياء عامر
- هلاليات : عبد الرحمن الهلالي
- الشتاء الأخير : آية على الشاعر
- مني لك : عبلة موسى، خالد غازي
- سكتة حب : عبلة موسى

- خلطة مطبعية : إيهاب الكيلاني
- خارج دواير الانتظار : أحمد رامي عبدالله
- ١/٢ كدر : عثمان عبدالمنعم
- لسه! : رفيدا حسن
- كلمات تروي حكايات : محمد العدلي
- خيال يرتب ألفاظه : د. محمد عبدالله الشيخ

الرواية والقصة القصيرة :

- استربتيز : منة الله رأفت
- الصامتون تحت الأرض : هبة حمدي
- المواجهة الملعونة : محمود شاهين
- العذاب الحلو : سالي غانم
- للأحلام اسم آخر لا نعرفه : محمد صلاح المصري
- طائر في الظلام : إيمان عبد الخالق
- هن : ولاء بيومي
- رجل ضد العالم : سمير زكي
- (HIV) من مذكرات مثلي : علاء أحمد
- للخطايا ثمن : محمد أبو خلف الله الجعفري
- جريمة أب : حازم خليفة

الكتب المجمعة :

- تيليجرام : شعر

- سيلفي : شعر
- سيجا : شعر
- صف تاني : شعر
- قلم رصاص : شعر
- ترابزين : شعر
- بارانويا : شعر
- بيانولا : قصة قصيرة
- ألوان : قصة قصيرة
- نيكتوفيليا : خواطر
- إنسانوبيكيا : شعر وخاطرة وقصة قصيرة

المقال والدراسات:

- مداد في حب الوطن : د.أحمد السعدي
- يا سكر : كريم عمرو، ياسمين التمامي
- كيميا الحب : سارة حسين
- لا مؤاخذة : أحمد مرسي
- مدن مصر المحروسة (حتمية الموضع، إمكانية الزمان) : على محمود العبادي
- شرائع محرمة : كواعب البراهمي

لطلب إصدارات مؤسسة زحمة كُتّاب للثقافة والنشر، زوروا مقرها في : **١٥** شارع السباق، مول المريلاند، مصر الجديدة، أو زوروا موقعها الإليكتروني لمعرفة أماكــن التوزيــع على مستـوى الجمهـورية، والدول العربية.

للتواصل :

www.za7ma-kotab.com

www.facebook.com/za7ma

www.facebook.com/za7makotab

za7ma-kotab@hotmail.com

٠١٢٠٥١٠٠٥٩٦



زحمة كُتّاب .. القدرة قرار !